الكبرياء X الاتضاع

PRIDE VERSUS HUMILITY

ديريك برنس

DEREK PRINCE

الكبرياء X الاتضاع

PRIDE VERSUS HUMILITY

ديريك برنس

DEREK PRINCE

المحتوى

المقدمة	٥
الجزء الأول: قانون الكبرياء والاتضاع	**٩**
١) القانون الكوني	١١
٢) الخطية الأولى في الكون	٢١
٣) خطة الله البديلة	٣٣
٤) سقوط الإنسان	٤٥
٥) تنازل الله المستمر	٥٥
الجزء الثاني: أمثلة رئيسية عن الكبرياء والاتضاع	**٦٥**
٦) جوهر الكبرياء	٦٧
٧) النموذج الأمثل للتواضع	٧٥
الجزء الثالث: التواضع والتمجيد	**٨٥**
٨) نتضع لكي نأتي إلى الله	٨٧

٩) نتضع لكي ننمو روحيًا ٩٩

١٠) التواضع تجاه الآخرين ١٠٩

نبذة عن الكاتب ١١٩

المقدمة

هل هناك مشكلة أساسية ومتجذرة في حياتنا، أكثر من حربنا مع الكبرياء؟ إنه التحدي الشائع، ويرحب معظمنا بأي مساعدة نتلقاها؛ حتى نحصل على النصرة فيه. وهنا يأتي دَور وفائدة هذا الكتاب، بتقديم توجيه متسع وتطبيق عملي، من تعاليم واقع مسيرة ديريك برنس التعليمية.

إن كنت تواجه صراعًا يوميًا للتغلب على تأثير الكبرياء في حياتك، فأنت الآن تتمتع بصحبة جيدة! الكبرياء معضلة واسعة الانتشار، تؤثر على كل إنسان حي؛ وهذا أحد الأسباب التي تجعلنا متحمسين للغاية، لنقدم لك تشجيع ديريك برنس الكتابي العميق والعملي: "**الكبرياء مقابل الاتضاع**".

يجلب هذا الكتاب -لكل شخص منَّا- بعض الأخبار المُشجعة: هناك حل روحي وشامل متاح لنا، لهذه المشكلة العامة. ونرى هذا الحل في المقطع التالي، المأخوذ من الفصل السادس: "جوهر الكبرياء":

«إنَّ القانون الأبدي الذي ينطبق على مسألة الاختيار بين الكبرياء والتواضع، هو الذي أعلنه يسوع:

«فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ.» (متى ٢٣: ١٢)».

"**الكبريـاء مقابـل الاتضـاع**" هـو حقًـا موضـوع واسـع؛ فهـو يشـمل كل الكـون، السـماوات والأرض وحـتى الهاويـة، وعـبر كل الأزمـان. ومـع اتسـاع حـدود مقيـاس هـذا المفهـوم، إلَّا أنـه ينطبـق تحديـدًا على الحيـاة الشـخصية لـكل فـرد منـا.

قـد يتخيـل بعـض الأشـخاص أنَّ مشـكلة الكبريـاء هي تحـت السـيطرة في حياتهـم، حـتى إنهـم قـد يُـصرُّون على أنهـم يسـيرون في مسـتوى عالٍ مـن التواضـع! في الواقـع، قـد يكـون بعضنـا متكبريـن في تواضعهـم، وهـذه مشـكلة في حـد ذاتهـا. وسـيعالج الكتـاب هـذا النـوع مـن الكبريـاء، كمـا يتضـح في هـذا الجـزء المقتبـس مـن الفصـل الثامـن: "نتضـع حـتى نـأتي إلى الله":

«تحـدث بولـس عـن ثـلاث فئـات مـن النـاس، يجـدون صعوبـة مـا في الدخـول لملكـوت الله: الحكمـاء، والأقويـاء، والشرفـاء (ذوو المكانـة الاجتماعيـة). هـل هنـاك أي خطأ في الحكمـة أو في القـوة أو في امتـلاك مكانـة اجتماعيـة عاليـة؟! هـل الله لديـه شيء مـا ضـد هـذه الصفـات؟! كلا على الإطـلاق. المشـكلة أنَّ تلـك الصفـات هي المصـدر الرئيـسي لتغذيـة الكبريـاء في الجنـس البـشري. يتفاخـر الأشـخاص بحكمتهـم وتعليمهـم وذكائهـم، أو بقوتهـم ونفوذهـم، أو بمولدهـم الرفيـع ومكانتهـم الاجتماعيـة. وهنـا تكمـن المشـكلة: المتكـبر لا يمكـن أن يدخـل ملكـوت الله.

يواجه التعليم المنهجي -في هذا الكتاب- القضايا المهمة التي تتعلق بالكبرياء والتواضع، بصراحة وقوة كتابية. وكما هو معتاد، لا يشارك ديريك برنس ببصيرة "تعليمية" فقط، وإنما بفائدة تلمس حياتنا اليومية على نحو واسع أيضًا. بدءًا من الدور الحيوي للتواضع حين يقترب كل منا أكثر إلى الله، إلى الأهمية القصوى للتواضع عند الأشخاص الذين هم في مناصب قيادية، إلى التواضع الذي لا غنى عنه في العلاقة مع الآخرين؛ لذلك يمكن أن يكون لهذا الكتاب تأثير يُغير حياتك.

لقد أُعدَّ كل جانب من جوانب هذا التعليم لمساعدتك؛ حتى تصبح أقوى في علاقتك مع يسوع، وليحفزك داخليًا لإتمام كل ما دعاك الرب لتحقيقه. وكما يقول ديريك برنس: «مثل هذا النضوج لن يحدث في حياتنا دون المكون الأساسي للتواضع».

كيف لنا أن نصنع التغييرات اللازمة، التي بدورها ستجعلنا نافعين للرب؟ قد يساعدنا لنفهم الإجابة على هذا السؤال، اقتباس آخر من الفصل التاسع: "كيف نتضع حتى ننمو روحيًا؟"، وقد يتعارض مع طموح شخصي، ربما نميل إلى إيوائه في قلوبنا. فمع أنَّ سياق هذا المقطع هو موضوع "النضج في القيادة"، إلا أنَّ تطبيقه أوسع بكثير من هذا، حيث يركز نظرتنا على أحد

المبـادئ الأساسـية لهـذا الكتـاب، فيقـول:

«إنــه مطلــب رئيــسي ولا غــنى عنــه: إن أردت أن تكــون عظيمًـا، عليـك أن تكـون خادمًـا! وإن أردت أن تكـون الأول -وأن تظـل عظيمًـا- فعليـك أن تنخفـض، عليـك أن تصـير عبـدًا!».

في هـذه المقدمـة، قدمنـا لـك لمحـة عـن محتـوى هـذا الكتـاب، ونأمـل أن يلهمـك ويشـجعك. إنَّ موضـوع هـذه الدراسـة مصـدر للتحفـيز؛ للتغلـب على تلـك المشـكلة العامـة. كمـا أنَّ الحلـول الكتابيـة الـتي يقدمهـا ديريـك برنـس على نحـو منهـجي، فيمـا يختـص بموضـوع "الكبريـاء مقابـل الاتضـاع"؛ سـوف توفـر لـك -بـلا شـك- دليـلًا نافعًـا ومفيـدًا للطريقـة الـتي تديـر بهـا بقيـة حياتـك.

فريق التحرير الدولي لخدمات

ويريك برنس

الجزء الأول

قانون الكبرياء والاتضاع

الفصل الأول

القانون الكوني

يكمن وراء عنوان هذا الكتاب "**الكبرياء مقابل الاتضاع**"، قانون كوني يمتد عمله في كل الكون. هو قانون يؤثر في كل فرد منا، ونظام أساسي يفرض تأثيره على كل مجال في حياتنا.

يلاحظ الغالبية العظمى منَّا أنَّ هناك أنواعًا مختلفة من القوانين، التي طالما حكمت هذا الكون. نحن نعلَم قوانين الفيزياء، ولكن يوجد أيضًا قوانين روحية يجب أن ننتبه لها. الكثير منا على دراية -إلى حد ما- بقوانين الفيزياء التي تحكم حياتنا وتحكم كل الكون. فعلى سبيل المثال، لن يلقي شخص طبيعي نفسه من نافذة الطابق الرابع، ويتوقع ألَّا يسقط! إننا ندرك جيدًا قانون "الجاذبية الأرضية" الذي يحدد نتائج مثل هذا الفعل. وأنا وأنت -بالتأكيد- لا نتوقع خرق مثل هذا القانون ثم الإفلات من النتائج!

في حقيقة الأمر، نحن لا نقوم "بكسر" قوانين الله، سواء كانت طبيعية أو روحية. لكن ما يحدث -إن قمنا بما يتعارض

مع تلك القوانين- هو إنها هي تكسرنا نحن. فالشخص الذي سقط من الطابق الرابع لا يكسر قانون الجاذبية الأرضية، لكن قانون الجاذبية الأرضية يكسره.

القانون الروحي الكوني

المبدأ نفسه يسري بكل فاعليته في المجال الروحي أيضًا، حتى إن لم ينتبه أو يُقر بوجوده الكثيرون. هناك قوانين روحية تحكم ما يحدث لنا، سواء في حياتنا الشخصية أو في كل الكون. وفي هذا الكتاب سنتداول أحد تلك القوانين الروحية الكونية. أعلن يسوع هذا القانون -لأول مرة في العهد الجديد- عندما قال: «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ.» (متى ٢٣: ١٢). وتكرر القانون نفسه مرتين في الأناجيل: (لوقا ١٤: ١١ و ١٨: ١٤)، وفي كلا الشاهدين، خرج هذا القانون من فم يسوع.

داوم يسوع على تذكير مستمعيه أنَّ هناك قانونًا يعمل في حياتهم، وهو القانون نفسه الذي يحكم الكون بأسره. إنه ذلك القانون الذي يرتبط بالاتضاع والكبرياء. أوجز يسوع هذا المبدأ كما يلي: كل من أظهر الكبرياء فسوف يُوضع، وكل من أظهر الاتضاع فسوف يرتفع.

مرة أخرى، هذا القانون الذي تحدث عنه يسوع هو قانون

كـوني؛ فهـو يـسري في كل مـكان، على أي شـخص، في كل وقـت وفي أي موقـف. وعادة، عندمـا كنـت أُعلِّـم عـن هـذا الموضـوع، كنـتُ ألخـص هـذا القانـون فأقـول: «طريـق الرفعـة هـو الاتضـاع، وسـبيل الانحطـاط هـو التعـالي». يجـب علينـا أن نحيـا بالتواضـع؛ لأننـا إذا بدأنـا بالتعـالي سـينتهي بنـا الأمـر إلى الانحطـاط؛ «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ».

الاتضاع هو مسئوليتنا

عنـد هـذه النقطـة، مـن الجيـد لنـا ملاحظـة أنَّ مهمتنـا هي أن نتضـع. يقـول يسـوع: «مَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ...»؛ فهـو يضـع المسـئولية على الشـخص المعـني بالأمـر.

والتواضـع ليـس "مشـاعر دينيـة لطيفـة"؛ فالأمـر ليـس في مجـال المشـاعر على الإطـلاق. وأحيانًـا نحـاول أن "نشـعر" بالتواضـع؛ فنفحـص ذواتنـا لـنرى إن كنـا متواضعـين بمـا يكـفي. وهـذا خطـأ. مكمـن التواضـع في مجـال الإرادة، وليـس في مجـال المشـاعر، كمـا أنَّ التعبـير عنـه يكـون مـن خـلال الأفعـال.

يمكننـا -بـل يجـب علينـا- أن نتواضـع بقـرار مـن إرادتنـا. لا يسـتطيع أحـد أن يفعل ذلك لنا؛ فيجـب علينا أن نفعله لأجل أنفسـنا.

هـذا القانـون الكـوني -الذي تحـدث عنـه يسـوع- نجـده في

أماكن أخرى في العهد الجديد. فعلى سبيل المثال، نقرأ في رسالة يعقوب: «اِتَّضِعُوا قُدَّامَ الرَّبِّ فَيَرْفَعَكُمْ» (يعقوب ٤: ١٠). في هذه الآية، نرى -عمليًا- القانون نفسه: إنَّ الطريق إلى الأعلى هو بالنزول للأسفل؛ فإن بدأنا بالنزول، فسننتهي بالارتفاع. لاحظ أنَّ (يعقوب ٤: ١٠) يقول "اتضعوا"؛ فلا نقدر أنت أو أنا أن نُطالب شخصًا آخر أن يفعل ذلك نيابة عنا؛ هذا دورنا ومسئوليتنا وحدنا.

ونرى المعالجة ذاتها - لهذه الحقيقة الكونية البديهية - في رسالة بطرس:

«وَكُونُوا جَمِيعًا خَاضِعِينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ، وَتَسَرْبَلُوا بِالتَّوَاضُعِ، لِأَنَّ: «اَللهَ يُقَاوِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا الْمُتَوَاضِعُونَ فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً». فَتَوَاضَعُوا تَحْتَ يَدِ اللهِ الْقَوِيَّةِ لِكَيْ يَرْفَعَكُمْ فِي حِينِهِ». (١بطرس ٥: ٥-٦)

مرة أخرى، نرى التأكيد ذاته: «فَتَوَاضَعُوا»؛ علينا أن نفعلها بأنفسنا. ونرى في هذا المقطع الضمانة عينها، المذكورة في موضع آخر بكلمة الله: إذا أصبحت لدينا الإرادة لنضَع أنفسنا؛ فسوف يرفعنا الله.

استخدم بطرس تعبيرًا مجازيًا عن ارتداء الثياب، في تعامله مع مبدأ التواضع: «تَسَرْبَلُوا بِالتَّوَاضُعِ»، وهذا تصور مُعاش يُعبر

عـن أمـر بديـهي؛ فمـن الطبيـعي أن يرتـدي الإنسـان ثيابـه بنفسـه، وليـس مـن المتوقـع أن يقـوم آخـر بالأمـر نيابـة عنـه. يقـول بطـرس بوضـوح أنـه علينـا أن نرتـدي التواضـع.

تـأتي ترجمـة (J. B. Phillips) لرسـالة (بطـرس الأولى ٥: ٥) بنقطـة أخـرى مهمـة، فيقـول: "تسربلـوا بحُلـة التواضـع في خدمـة بعضكـم بعضـا". تُرجمـت الكلمـة "تسربلـوا" أو "البسـوا حُلـة" مشـيرة إلى لبـاس خـاص، تحديـدًا نـوع مـن "المَريلـة".

كانـت "المَريلـة" - وقـت كتابـة العهـد الجديـد - زي ممـيز يرتديـه العبيـد فقـط؛ فـكأن بطـرس الرسـول يشـجعنا أن نرتـدي الـزي الذي يشـير إلى أننـا عبيـد، في إشـارة إلى أننـا هنـا لنخـدم. هـذه هي الطريقـة الـتي نتسربـل بهـا بالتواضـع. ومـرة أخـرى، نـرى أنَّ هـذا القـرار نابـع مـن إرادتنـا، ويُعـبَّر عنـه بطريقـة سـلوكنا.

التجاوب الصحيح

عادة مـا ينشـئ الله بعـض الظـروف؛ حـتى يسـاعدنا أن نتضـع. ومـع ذلـك، فنحـن -وحدنـا- مَـن نسـتطيع أن نتجـاوب بالطريقـة الصحيحـة. لنلاحـظ ما قيـل في (تثنيـة ٨: ٢-٣) عن كيفيـة تعامل الله مـع بـني إسرائيـل في البريـة، بعدمـا أخرجهـم مـن أرض مـصر: «وَتَتَذَكَّرُ كُلَّ ٱلطَّرِيقِ ٱلَّتِي فِيهَا سَارَ بِكَ ٱلرَّبُّ إِلَهُكَ هَذِهِ ٱلْأَرْبَعِينَ سَنَةً فِي ٱلْقَفْرِ، لِكَيْ

يُذِلَّكَ وَيُجَرِّبَكَ لِيَعْرِفَ مَا فِي قَلْبِكَ: أَتَحْفَظُ وَصَايَاهُ أَمْ لا؟ فَأَذَلَّكَ وَأَجَاعَكَ وَأَطْعَمَكَ ٱلْمَنَّ ٱلَّذِي لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهُ وَلَا عَرَفَهُ آبَاؤُكَ، لِكَيْ يُعَلِّمَكَ أَنَّهُ لَيْسَ بِٱلْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا ٱلْإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ مَا يَخْرُجُ مِنْ فَمِ ٱلرَّبِّ يَحْيَا ٱلْإِنْسَانُ».

احتاج بني إسرائيل أن يتعامل الله مع كبريائهم، بعدما افتداهم من أرض مصر، فأنشأ لهم أوضاعًا خاصة. لقد وضعهم في البرية، حيث كانوا في اعتمادية كاملة عليه، بصورة واضحة للغاية: من جهة المياه التي يشربونها، والطعام الذي يأكلونه. في هذا الوضع، أراهم اعتمادهم الكامل عليه. وبتلك الطريقة، هيأ لهم أن يتضعوا. لقد أنشأ حالة تكون الاستجابة الواعية فيها منهم، أن يتضعوا ويقروا باعتمادهم الكامل على الله.

لكننا هنا نجد حقيقة تاريخية مثيرة: لم يتعلم غالبية بني إسرائيل الدرس! فمع أنَّ الله هيأ لهم أن يتضعوا، لكنهم لم يتضعوا! وهنا يكمن خطر حقيقي، علينا أن نعيه: إنَّ الله ينشئ الوضع والظروف ليساعدنا من خلالها، لكننا نحن فقط من نستطيع أن نتضع حقًا؛ فالقرار يتوقف على إرادتنا.

التصرف المناسب

نرى إذًا، إنَّ التواضع قرار إرادي، وهذا القرار الذي تم اتخاذه، يجب أن يُترجم في أفعال مناسبة له.

أعطى يسوع مثلًا حيًا عن هذه الحقيقة في (لوقا ١٤: ٧-١١)، إذ تحدث عن سلوك الأشخاص المدعوين لعُرسٍ. كان لكل واحد من هؤلاء الأشخاص -الذين تلقوا الدعوة- اختياران أو طريقان يمكن أن يتصرفوا بموجبهما:

«وَقَالَ لِلْمَدْعُوِّينَ مَثَلًا، وَهُوَ يُلَاحِظُ كَيْفَ ٱخْتَارُوا ٱلْمُتَّكَآتِ ٱلْأُولَى قَائِلًا لَهُم: مَتَى دُعِيتَ مِنْ أَحَدٍ إِلَى عُرْسٍ فَلَا تَتَّكِئْ فِي ٱلْمُتَّكَإِ ٱلْأَوَّلِ، لَعَلَّ أَكْرَمَ مِنْكَ يَكُونُ قَدْ دُعِيَ مِنْهُ. فَيَأْتِيَ ٱلَّذِي دَعَاكَ وَإِيَّاهُ وَيَقُولَ لَكَ: أَعْطِ مَكَانًا لِهَذَا. فَحِينَئِذٍ تَبْتَدِئُ بِخَجَلٍ تَأْخُذُ ٱلْمَوْضِعَ ٱلْأَخِير. بَلْ مَتَى دُعِيتَ فَٱذْهَبْ وَٱتَّكِئْ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلْأَخِيرِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ ٱلَّذِي دَعَاكَ يَقُولُ لَكَ: يَا صَدِيقُ، ٱرْتَفِعْ إِلَى فَوْقُ. حِينَئِذٍ يَكُونُ لَكَ مَجْدٌ أَمَامَ ٱلْمُتَّكِئِينَ مَعَكَ. لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ».

في نهاية هذا المثل، شرح يسوع القانون الذي ندرسه: «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ». فسر يسوع هذا المبدأ بمثل المدعوين إلى حفل عُرْسٍ. في مثل تلك الاحتفالات، هناك مواضع مخصصه لإكرام بعض المدعوين، وأماكن أخرى لمن لهم تقدير أقل. فعندما ندخل إلى هذا الحفل الذي دُعينا إليه، يجب علينا ألا نسعى للمواضع الأولى. بل على العكس، علينا أن نتوجه للموضع الأخير، ونجلس هناك. الاتضاع يُعبَّر عنه بالسلوك المناسب. السلوك الصحيح هو أخذ الموضع الأقل. يجب

ألَّا نُـرقِّي ذواتنـا، بـل مـن الـضروري أن ننتظـر أن نرتـقي.

تطبيق قانون الاتضاع

ينطبـق المبـدأ الذي نقـوم بدراسـته على عالمنـا اليـوم، على حياتـك وحيـاتي أيضًـا، وقـد يكـون هـو المفتـاح لننـال الترقيـة. فكيـف لـك ولي أن نرتـقي؟ بـأن نتواضـع. مـا هـو الطريـق للارتفـاع؟ الطريـق للارتفـاع هـو بالاتضـاع!

وينطبـق هـذا الحـق على كل المواقـف في حياتنـا. فعـلى سـبيل المثـال، إن كنـت تعمـل بمكتـب، فقـد تختـار أن تتـصرف كأنـك المديـر أو الرئيـس. أو يمكنـك اتخـاذ الخيـار الأفضـل لتتـصرف كمـا لـو أنـك في مكانـة متواضعـة للغايـة. يمكنـك الاختيـار أن تكـون متواضعًـا؛ وإن كنـت متواضعًـا، فسـوف ترتفـع.

وبصـورة مماثلـة، فـفي العلاقـات العائليـة، لا تكـن متكـبرًا، ولا تكـن متفاخـرًا، ولا تسـعَ لإشـباع ذاتـك. كـن راغبًـا في أن تَخـدُم، وارتـدِ "مَريلـة الاتضـاع"، رداء العبـد. سـوف ينظـر الله إلى ذلـك؛ ويرفعـك. وهنـاك مـا لا يُحـصى مـن المواقـف الأخـرى، لتطبيـق هـذا المبـدأ.

اللّه يرشد المتضع

لنلخص الآن ما تعلمناه حتى هذه المرحلة: هناك قانون يؤثر على كل فرد منا، وهو قانون روحي كوني. ذلك القانون أعلنه يسوع: «مَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ». وسيكون هذا المبدأ الثمين أساس دراستنا في هذا الكتاب. ويمكن أن نُجْمِل هذا القانون في السلوك التالي: "الطريق للارتفاع هو بالاتضاع"؛ فإن أردنا أن نرتفع، يجب علينا أن نبدأ بأن نتضع. ولكن، إن بدأنا بالارتفاع، فسينتهي الأمر بنا بالانحطاط!

وتعلمنا -أيضًا- أنها مسئوليتنا نحن أن نتواضع، وأنه يجب علينا -عند خدمتنا بعضنا بعضًا- أن نرتدي "مَريلة" التواضع، تلك الكلمة التي تصف رداءً خاصًا، لا يرتديه إلَّا العبيد. ذلك الرداء الذي يجب أن نضعه علينا، وهي الطريقة التي نرتدي بها الاتضاع. وعادة ما يُنشئ الله ظروفًا معينة؛ ليساعدنا أن نتضع. ولكن علينا أن نقوم بالتجاوب المناسب، وأن نتضع بأنفسنا كعمل إرادي، نابع من داخلنا، ويتبعه الأفعال الملائمة. الاتضاع هو قرار يُعبَّر عنه بأفعال.

وأنهي هذا الفصل مقتبسًا من قصيدة شعرية تعجبني لـ John Bunyan:

كل مَن هو متضع؛ لا يخشى السقوط.

كل مَن هو متضع؛ لا يتكبر.

كل مَن هو متضع؛ سيتمتع بالله مرشدًا له دومًا.[1]

سنتعلم في الفصل التالي المزيد عن هذا القانون الكوني، مبدأ "أن كل من يضع نفسه يرتفع، وكل من يرفع نفسه يُهان أو يُذل". وكأساس للمزيد في دراستنا، سندرس أول حادثة في تاريخ العالم، إذ سنرى فيها هذا القانون فعَّالًا. وللقيام بذلك، علينا أن نعود في تاريخ البشرية إلى الوقت الذي لم يكن فيه الإنسان قد خُلق بعد، إلى الحالة التي حدثت فيها أول خطية.

(١) "سياحة المسيحي" الجزء الثاني - جون بنيان ١٦٨٤

الفصل الثاني

الخطية الأولى في الكون

في الفصل السابق، تعلمنا أنَّ هناك نوعين من القوانين التي تنظم الكون: القوانين الطبيعية والقوانين الروحية. كلٌ منَّا لديه بعض الفهم لمعظم القوانين الفيزيائية، مثل قانون الجاذبية الأرضية. وكما أشرتُ، فلسنا نحن مَنْ "نكسر" تلك القوانين، بل هي التي تكسرنا. لا يستطيع أحد أن يكسر قانون الجاذبية، لكن الشخص الذي يتجاهل هذا القانون هو مَن ينكسر!

كما أشرتُ إلى أنَّ هناك مبادئ روحية كونية أيضًا. وهي تعمل في كل مجالات الكون، وفي كل موقف، في حياة كلٍ منَّا. وتحديدًا، قمت بالتركيز على أحد المبادئ الروحية، التي تعمل في كل الكون، كما تعمل أيضًا في حياة كل إنسان. ذلك القانون أعلنه يسوع بنفسه في (متى ٢٣: ١٢): «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِع».

قبل التاريخ البشري

في هذا الفصل، سنقوم بدراسة أول حادثة في التاريخ البشري،

ونـرى فيهـا هذا القانـون يعمل بـكل وضوح. سـنعود إلى ما قبـل التاريخ البـشري، إلى ذلـك الزمـان، حـين -على مـا أظـن- لـم يكـن الإنسـان قد خُلـق بعـد؛ فلقـد خُلقـت السـماوات وكل المخلوقـات السـمائية، ولكن الجنـس البـشري -وفـق مـا نعلـم- لـم يكـن بعـد في مشـهد التاريـخ.

نعـود إلى ذلـك الزمـن، حـين وقعـت أول خطيـة. سـوف نـدرس مـا دوَّنـه النـبي حزقيـال. وفي دراسـة كلماتـه، يجـب علينـا أن نأخـذ في الحُسـبان حقيقـة خدمـة الأنبيـاء. كلمـات النـبي ليسـت فقـط إعلانًـا عـن أحـداث في المسـتقبل، وهي الـتي لا يمكننـا أن نعرفهـا بدونـه - ولكنهـا أيضًـا تُعلـن عـن أحـداث وقعـت في المـاضي، ولـم يكـن هنـاك سـبيل لمعرفتهـا دون نبواتـه أيضًـا.

وفي هـذه الحالـة تحديـدًا، سـوف نلـقي نظـرة على أحـداث في المـاضي البعيـد، أُعلنـت مـن خـلال خدمـة نبويـة، ولـم يكـن مـن الممكـن معرفتهـا بطريقـة أخـرى.

مقدمتان أساسيتان عن الخطية الأولى

لـكي نبـدأ دراسـتنا، أريـد أن أوضـح أمريـن أساسـيين عـن طبيعـة الخطيـة:

أولًا: إنَّ الخطيـة الأولى في الكـون لـم تكـن شُرب الخمـر أو الفجـور

أو حتى القتل، إنما كانت خطية الكبرياء! تلك[٢] الكبرياء أدت على الفور للتمرد على الله! وهنا نرى حقيقة أنَّ الأمر الداخلي يسبق الفعل الخارجي. يمكننا رؤية إحدى السمات المهمة للكتاب المقدس، فيما يتعلق بهذا الأمر: لا تُظهر كلمة الله أفعالنا الخارجية فحسب، إنما تكشف الأسباب الداخلية لها. كانت الكبرياء هي السبب الداخلي، الذي أدى للفعل الخارجي بالتمرد على الله.

ثانيًا: إنَّ الخطية الأولى حدثت في السماء، وليس على الأرض. واقترفها ملاك، وليس إنسان من البشر. ومما يدعو للسخرية، إنَّ الكبرياء التي تسببت بالخطية، نجمت عن عطيتي الحكمة والجمال، اللتين تَفضل الخالق بهما عليه!

جذر التمرد

يشرح سفر حزقيال (٢٨: ١١- ١٧) الحادثة الخاصة بالخطية الأولى. يتحدث ذلك المقطع عن شخصين بالتوالي: الأول هو الأمير أو الحاكم لمدينة صور، والثاني هو ملك صور. ويظهر جليًا أنَّ الشخص الأول كائن بشري، حتى إن إدعى هو أنه إله؛ فكلمة الله تؤكد أنه كان رجلًا. ولكن الشخص الثاني -ملك صور- لم يكن كائنًا بشريًا، بل كان -بكل وضوح- كائنًا

(٢) الكبرياء كلمة مؤنثة

ملائكيًا: كروب، وهو ملاك ساقط!

عزيزي القارئ أريدك أن تدون ملاحظاتك -وأنت تقرأ الكلمات الآتية- عمَّا قاله حزقيال عن الشخص الثاني: ملك صور. أريدك أن تحدد المؤشرات الواضحة على أننا نتعامل هنا مع ملاك ساقط:

«وَكَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ ٱلرَّبِّ قَائِلًا: «يَا ٱبْنَ آدَمَ، ٱرْفَعْ مَرْثَاةً عَلَى مَلِكِ صُورَ وَقُلْ لَهُ: هَكَذَا قَالَ ٱلسَّيِّدُ ٱلرَّبُّ: أَنْتَ خَاتِمُ ٱلْكَمَالِ، مَلآنٌ حِكْمَةً وَكَامِلُ ٱلْجَمَالِ. كُنْتَ فِي عَدْنٍ جَنَّةِ ٱللهِ. كُلُّ حَجَرٍ كَرِيمٍ سِتَارَتُكَ، عَقِيقٌ أَحْمَرُ وَيَاقُوتٌ أَصْفَرُ وَعَقِيقٌ أَبْيَضُ وَزَبَرْجَدٌ وَجَزْعٌ وَيَشْبٌ وَيَاقُوتٌ أَزْرَقُ وَبَهْرَمَانُ وَزُمُرُّدٌ وَذَهَبٌ. أَنْشَأُوا فِيكَ صَنْعَةَ صِيغَةِ ٱلْفُصُوصِ وَتَرْصِيعِهَا يَوْمَ خُلِقْتَ. أَنْتَ ٱلْكَرُوبُ ٱلْمُنْبَسِطُ ٱلْمُظَلِّلُ، وَأَقَمْتُكَ. عَلَى جَبَلِ ٱللهِ ٱلْمُقَدَّسِ كُنْتَ. بَيْنَ حِجَارَةِ ٱلنَّارِ تَمَشَّيْتَ. أَنْتَ كَامِلٌ فِي طُرُقِكَ مِنْ يَوْمَ خُلِقْتَ حَتَّى وُجِدَ فِيكَ إِثْمٌ. بِكَثْرَةِ تِجَارَتِكَ مَلَأُوا جَوْفَكَ ظُلْمًا فَأَخْطَأْتَ. فَأَطْرَحُكَ مِنْ جَبَلِ ٱللهِ وَأُبِيدُكَ أَيُّهَا ٱلْكَرُوبُ ٱلْمُظَلِّلُ مِنْ بَيْنِ حِجَارَةِ ٱلنَّارِ. قَدِ ٱرْتَفَعَ قَلْبُكَ لِبَهْجَتِكَ. أَفْسَدْتَ حِكْمَتَكَ لِأَجْلِ بَهَائِكَ. سَأَطْرَحُكَ إِلَى ٱلْأَرْضِ، وَأَجْعَلُكَ أَمَامَ ٱلْمُلُوكِ لِيَنْظُرُوا إِلَيْكَ».

سمات هامة للكروب المتكبر

دعني أعطي بعض النقاط عمَّا أعلنته هذه الأعداد، فيما

يخص هذا الكائن الفريد تحديدًا: الكروب. يعلن العدد (١٢) أنه "ملآن حكمة وكامل الجمال"، ربما كان أكثر مخلوقات الله حكمة وجمالًا. ويعلن العدد (١٣) أنه كان موجودًا في جنة عدن. كان له مرتبة خاصة من الكرامة في السماء، وكان يوجد مباشرة في محضر الله! أمَّا العدد (١٤) فيشير إلى أنه "ٱلْكَرُوبُ ٱلْمُظَلِّلُ". ويؤكد العدد (١٥) أنه مع كل حكمته وجماله، إلَّا أنه مخلوق؛ لم يكن إلهًا!

ومن اللافت للانتباه، في العدد (١٦) قوله: «بِكَثْرَةِ تِجَارَتِكَ مَلَأُوا جَوْفَكَ ظُلْمًا فَأَخْطَأْتَ»؛ فالكلمة العبرية التي تترجم في هذه الآية "تجارتك"، هي مصطلح مثير جدًا للاهتمام، ونحن بحاجة لأن نفهمه بوضوح. حرفيًا، تعني الكلمة "التحرك ذهابًا وإيابًا"، ويستخدم هذا اللفظ للتجارة؛ لأنَّ التجار يتحركون باستمرار ذهابًا وإيابًا. وفي الحقيقة، هذا التعبير مرتبط بصورة مباشرة مع تعبير آخر مُستخدم عدة مرات في العهد القديم، ويُترجم "ٱلْوَاشَيَ" أو "النمام". وها هما مثلان: من (لاويين ١٩: ١٦): «لَا تَسْعَ فِي ٱلْوِشَايَةِ بَيْنَ شَعْبِكَ.»، ومن (أمثال ١١: ١٣): «ٱلسَّاعِي بِٱلْوِشَايَةِ يُفْشِي ٱلسِّرَّ». الفكرة الأساسية هي عن الشخص الذي يتجول للنميمة، حاملًا الحكايات، متحدثًا بالوشاية.

وبالعودة مرة أخرى للمشهد في السماء في (حزقيال ٢٨)،

نحصل على صورة حية عما حدث بالفعل وقتئذٍ. وما يلي هو تصوري الشخصي عن هذا المقطع: تشير كلمة الله إلى أنَّ هذا الكروب كان يُدعى -في ذلك الوقت- "لوسيفر"، «زُهَرَةُ بِنْتَ ٱلصُّبْحِ»، "اللامع"، "ابن الفجر"، "نجم الصباح". وكان مسئولًا عن ثلث خليقة الله من الملائكة.

ومع أنه كان حكيمًا للغاية وفائق الجمال، إلَّا أنه لم يكن مكتفيًا، ولم يكن قانعًا بتبعيته لله، شعر أنَّ له الحق في أن يكون مساويًا لله! فماذا فعل ذلك الكروب؟ بدأ يروج للتمرد، بدأ بالتحرك ذهابًا وإيابًا، بين الملائكة المسئولين منه. وبينما كان يتجول بينهم، أتصور أنه كان يقول شيئًا كهذا: «أنصتوا، إنَّ الله لا يُقدِّر حكمتكم وقوتكم بما يكفي. من الممكن أن يكون لكم مكانة أعلى. الله لا يُقدِّر حكمتي ولا جمالي. أنا أستحق مكانة أعلى. أقول لكم الحق: إذا اتبعتموني؛ سأجعل نفسي مساويًا لله».

بهذه الصورة قام لوسيفر بالترويج للتمرد على الله. وتعلن الكلمة بوضوح أنَّ كل من لوسيفر والملائكة الذين تبعوه، طُردوا من محضر الله بسبب تمردهم. لاحظ أنَّ جذر التمرد هو الكبرياء؛ كان جمال وحكمة لوسيفر السبب وراء تكبره، وتكبره أدى إلى التمرد، وكانت نتيجة رفعه لنفسه؛ أنه طُرح إلى أسفل.

شرح مماثل لتمرد لوسيفر

احتفظ في ذهنك بذلك المقطع من حزقيال، وسننظر في وصف مماثل، وصف آخر نجده في كتابات الأنبياء أيضًا. فقد شرح النبي إشعياء الموقف ذاته، وذلك المشهد الذي حدث في السماء قبل أن يوجد الجنس البشري، مع المخلوقات الملائكية التي رفعت نفسها بتمرد ضد الله.

في الأصحاح الرابع عشر من سفر إشعياء، نجد الإعلان النبوي يكشف جليًا الدافع عند ذلك الكروب الساقط:

«وَأَنْتَ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: أَصْعَدُ إِلَى ٱلسَّمَاوَاتِ. أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ ٱللهِ، وَأَجْلِسُ عَلَى جَبَلِ ٱلِاجْتِمَاعِ فِي أَقَاصِي ٱلشَّمَالِ. أَصْعَدُ فَوْقَ مُرْتَفَعَاتِ ٱلسَّحَابِ. أَصِيرُ مِثْلَ ٱلْعَلِيِّ. لَكِنَّكَ ٱنْحَدَرْتَ إِلَى ٱلْهَاوِيَةِ، إِلَى أَسَافِلِ ٱلْجُبِّ».

لاحظ -مرة أخرى- المبدأ «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ» (متى ٢٣:١٢). هل تلاحظ معي كيف يفضح هذا المقطع من سفر إِشَعْيَاءَ دوافع هذا الكروب؟ يمكن ملاحظة ذلك من العبارات الخمس التي قال إنه سيفعلها؛ فلندرس كل منها بالمُجمل:

١) «أَصْعَدُ إِلَى ٱلسَّمَاوَاتِ».

٢) «أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ ٱللهِ».

٣) «وَأَجْلِسُ عَلَى جَبَلِ ٱلِٱجْتِمَاعِ».

٤) «أَصْعَدُ فَوْقَ مُرْتَفَعَاتِ ٱلسَّحَابِ».

٥) «أَصِيرُ مِثْلَ ٱلْعَلِيِّ».

إرادة المخلوق في مواجهة الخالق، هي جوهر وجذر كل المشكلة. الدافع هو الكبرياء، والفعل هو التمرد. وماذا كانت الغاية الأسمى لديه؟ عَبَّر عن هذا المطمع في العبارة الخامسة: «أَصِيرُ مِثْلَ ٱلْعَلِيِّ»! لقد أراد المخلوق التساوي مع الخالق؛ فرفع نفسه؛ والنتيجة أنه سقط.

حاليًا، لا نعرف هذا المخلوق باسم "لوسيفر" المنير والمشع نورًا، والمجيد، الذي كانت مسئوليته وامتيازه الخاص أن يعلن عن قدوم الصبح، لكن نعرفه الآن باسم "الشيطان"، الخصم، والمقاوم، وعدو الله والإنسان، الذي يقاوم مقاصد الله وشعب الله، في كل مكان بالأرض. نحن نعرف هذا الشيطان أنه ذاك الذي لا أمل في علاجه من داء كبريائه، إنه ذاك المعادي كليًا لله القدير.

درس مخيف

ما الدرس الذي نتعلمه من فحصنا لاتجاه وأفعال لوسفير في المقاطع السابقة؟ دون شك، إنه درس مخيف: إنَّ الكبرياء والتمرد يمكن أن يحولا من هو أعظم بهاءً وجمالًا، إلى الأكثر شرًا وقبحًا. وهنا يأتي تذكير يدعو للقشعريرة: إنَّ هذا المخلوق بدأ كأحكم وأكثر مخلوقات الله جمالًا. ولكن عندما ملأت الكبرياء قلبه؛ تحول ضد الله بتمرد؛ فسقط. تذكر المبدأ الكوني: «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ».

إرادة المخلوق وتعارضها مع الخالق

لحسن الحظ، مع تلك الحقيقة الصارخة لسقوط لوسيفر، كان لدى الله الخطة البديلة. تلك الخطة ستكون موضوع دراستنا في الفصل التالي. ولكن دعونا أولًا نراجع ما تعلمناه حتى الآن:

درسنا الحادثة الأولى في تاريخ الكون، ورأينا فاعلية هذا المبدأ غير القابل للتغيير: قانون مَن يضع نفسه سيرتفع، ومَن يرفع نفسه سيوضع.

عدنا في التاريخ إلى ذلك الوقت قبل أن يُخلق الإنسان، حين وقعت أول حادثة للخطية على الإطلاق. نظرنا أولًا إلى نبوة حزقيال، ملاحظين أنَّ الخطية الأولى في الكون كانت الكبرياء،

وتلك الكبرياء أدت في النهاية إلى التمرد على الله.

وقعت الخطية الأولى في السماء، وليس على الأرض. وقد اقترفها ملاك، لا إنسان. وصف حزقيال بوضوح هذا الملاك (لوسيفر) أنه ملآن بالحكمة والجمال. وقد أُعطي هذا الملاك الحكيم سلطانًا عظيمًا، ومع ذلك لم يكن قانعًا، بل على العكس، شعر أنَّ لديه الحق أن يكون مساويًا لله! ونتيجة لذلك الطموح الشرير، بدأ يروج للتمرد فيما بين الملائكة الآخرين، وتبعه ثلث الملائكة، وترتب على ذلك طردهم جميعًا من محضر الله؛ بسبب تمردهم.

ومن دراستنا لهذه الواقعة من نبوات حزقيال وإِشَعْيَاءَ، رأينا أنَّ إرادة المخلوق حين تتعارض مع الخالق، هي جوهر وجذر مشكلة الخطيئة بأكملها. الدافع هو "الكبرياء"، والفعل هو "التمرد". الدرس الذي يدعو للخوف: إنَّ الكبرياء والتمرد يمكن أن يُحول الأروع إلى الأسوأ. عندما رَفَعَ لوسيفر نفسه، طُرِحَ لأسفل. «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ».

ونرى من سقوط لوسيفر، أنَّ القانون الخاص بالكبرياء والتواضع، لا يعمل فقط في نطاق حياتنا البشرية، وإنما في نطاق كل الكون، فهو يؤثر في كل كائن مخلوق، لديه القدرة على التجاوب مع الكبرياء أو التواضع على حد سواء.

والآن ننتقل للفصل التالي، وندرس خطة الله البديلة، التي منحها الله -بنعمتهِ- لكل البشر على الأرض، بعد سقوط الإنسان نتيجة الكبرياء أيضًا.

الفصل الثالث

خطة الله البديلة

نستكمل دراستنا للقانون الكوني الأبدي، فيما يتعلق بالكبرياء والتواضع. المعركة بين هاتين القوتين المتنافستين هي شيء نواجهه باستمرار في حياتنا، أليس كذلك؟

لخص يسوع القانون الروحي -الذي استفضنا في دراسته- بقوله في (متى ٢٣: ١٢): «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِع». في الفصل السابق، درسنا أول تمرد في تاريخ الكون، ورأينا الجانب المحزن من هذا القانون. في (حزقيال ٢٨) نظرنا إلى مشهد تفشي الكبرياء، وتمرد الكروب المهيب الملقب لوسيفر، الذي أثار التمرد بين رفاقه من الملائكة، متهمًا لله، ومتحركًا بالوشاية بينهم. وفي النهاية أقنع الملائكة الذين تحت سلطته بالانضمام إليه في تمرده.

في تلك النقطة رأينا تجلي القانون الكوني يأخذ مجاله. فمن خلال رفع لوسفير لنفسه، تم إذلاله. طُرحَ من حضرة الله لأسفل، والملائكة رفقائه طرحوا معه. ولم يعد اسمه من هذه

اللحظة "لوسيفر" الذي يعني «زُهَرَةُ، بِنْتَ ٱلصُّبْحِ»، وأصبح اسمه الذي نعرفه به هو "الشيطان"، الذي يعني "المقاوم".

مخلوق خاص جدًا

سنقوم في هذا الفصل بدراسة خطة الله التي أبدعها ليبطل تأثير تمرد لوسيفر. من الواضح أنَّ الكبرياء كانت أصل تمرده، وكانت خطة الله أن يصنع مخلوقًا مختلفًا تمامًا؛ ليحل في النهاية محل لوسيفر، مع الحفاظ على اتجاه التواضع داخله. هذا المخلوق الجديد -الذي ابتكره الله لهذا الغرض- هو "الإنسان"، أو كما يُدعى في اللغة العبرية "آدم". آدم هو اسم فعلي لشخص، واسم لكل الجنس البشري أيضًا.

من المهم بالنسبة لنا أن نلاحظ أنَّ الله خلق آدم بطريقة مختلفة عن أي مخلوق آخر. هناك جانب خاص في طريقة خلق الله لآدم، وهي التي أعدها الخالق لمقاومة الكبرياء فيه.

وتحديدًا، فقد جاء آدم من مصدر آخر مختلف عن كل الكائنات الحية التي خُلقت. خُلق بما هو عالٍ مع ما هو حقير، تكوَّن ممَّا هو أدنى وأكثر تواضعًا، وفي الوقت ذاته كان في داخلهِ شيء مِن الخالق الأعظم. نجد شرح الخلق العجيب لآدم في (تكوين ٢: ٧): «وَجَبَلَ ٱلرَّبُّ ٱلْإِلَهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ ٱلْأَرْضِ، وَنَفَخَ

فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً».

لا أعلم إن كان لديك رد الفعل نفسه الذي لديَّ تجاه خلق آدم، فيا لها من صورة حية مبهرة،أتخيل كيف حدثت كما وُصفت: أرى الخالق العظيم، الذي من خلاله خُلق كل شيء (انظر على سبيل المثال، كولوسي ١: ١٥-١٧)، أرى ابن الله (كلمة الله) الأقنوم الثاني في الله الثالوث، أراه ينحني في تلك الجنة، مُشكلًا -بكمال أصابعه الإلهية- صورة من الطين. ومن المهم أن نلاحظ في النهاية، أنَّ ما شكَّله الله كان كاملًا، إلَّا أنه لا يزال طين فقط، في هذه المرحلة.

ثم انحنى الخالق أكثر، ووضع شفتيه الإلهية مقابل شفتي الطين، وأنفه الإلهية مقابل أنف الطين، ونفخ في آدم نسمة الحياة! والكلمة العبرية المترجمة «نَفَخَ» في (تكوين ٢: ٧) هي (vai-yip-pach)، والمقطع (pach باخ) يُبين أنها نفخة قوية، بدفعٍ، ومستمرة. هذه النسمة التي نفخها الله (روح الله القدير) حولت على الفور ذلك الجسم الطيني إلى كائن بشري حي، مع كل روائع الشخصية البشرية.

خمسة جوانب فريدة في خلق الإنسان

يا له من وصف بديع لطريقة خلق الإنسان! ومرة أخرى،

كان أحد نتائج خلق الله لآدم بهذه الطريقة، هو تقليل ميل هذا المخلوق للكبرياء، وهذا ما سنراه بعد لحظات. دعني أولًا أشير إلى خمس حقائق في غاية الأهمية، عن خلق الإنسان (آدم) كما أعلنها المقطع السابق:

١) كان هدف الله أن تكون علاقته مع الإنسان علاقة شخصية، علاقة شخص بشخص: لأول مرة تُسجل -في كلمة الله- أسماء شخصية لله، فيقول (تكوين ٢: ٧): «وَجَبَلَ الرب ٱلْإِلَهُ آدَمَ». "الرب" هو الاسم المقدس الشخصي للإله الحقيقي. عادة ما نستخدم لفظ "Jehovah" لهذا التعبير، وكثيرًا ما ينطقه الدارسون في هذا العصر "يهوه"، بالصورة العبرية. ولكن الحقيقة الهامة التي نتذكرها، أنَّ السرد هنا يقدم الله باسمه الشخصي. وكذلك، بعدها يأتي تقديم الإنسان باستخدام اسمه الشخصي. فماذا نستنتج من هذا؟ خلق شخص الله شخصًا بشريًا ليدخل معه في علاقة، وهذا يشير للمقصد العظيم لدى الخالق الذي يريد شركة مع خليقته، علاقة شخص بشخص.

٢) تنازل الله لخلق آدم: انحنى أولًا إلى التراب وكَوَّن جسدًا، ثم انحنى لأسفل مجددًا ونفخ نسمته الإلهية في ذلك التراب. كان على الله أن يتنازل ليخلق الإنسان.

٣) منح الله نفسه للإنسان: نفخ الله نسمته الإلهية في الجسد المكون من الطين.

٤) لدى الإنسان طبيعتان: نتيجة لعمل الله، فالإنسان هو مزيج من طبيعة علوية وطبيعة أرضية. الطبيعة العلوية تأتي من الله نفسه مباشرة، والطبيعة المتدنية من تراب الأرض. هل تفهم ذاتك أكثر، حين تفكر في هذه العملية المذهلة للخلق؟ هل تشعر بما أشعر به؟

بداخلك وداخلي شيء عالٍ وشيء وضيع. ألَّا يُفسر هذا لنا السبب في أنَّ جزءًا كبيرًا من مجمل اختبارات حياتنا، هو نزاع بين ما هو عالٍ وما هو دوني.

هذا يفسر الكثير مما نراه يدور حولنا اليوم؛ فهو يعرفني "ذاتي" بطريقة لم ينجح فيها شيء آخر. لقد كنتُ فيلسوفًا مُحترفًا لسنوات، أقوم بدراسة مختلف النظريات عن أصل الإنسان والكون. ومع ذلك، لم يشبعني أي منها، ولم يعطني أي منها أجوبة تفسر لي عن نفسي كما فعل هذا الأصحاح.

٥) يمتلك الإنسان القدرة على تكوين علاقة مزدوجة: فآخر حقيقة من تلك الجوانب الخمسة من خلق الإنسان، كما أُعلنت في (تكوين ٢: ٧)، أنَّ الإنسان أصبح لديه الإمكانية

الآن لعلاقة ذات طابع مزدوج. فمن خلال روحه (الشِق الذي من الله) يمكن أن يتواصل مع الله، ومن خلال جسده (الجزء الآتي من الأرض) يقدر أن يتواصل مع العالم حوله. ومرة أخرى نرى حقائق أبدية تتوافق مع خبراتنا، فهناك أمر ما بداخلنا تم تصميمه ليتواصل مع الله. جانب من طبيعتنا مصنوع ليكون لله، وليشبع بالشركة معه؛ فلقد خُلقنا لعلاقة ثنائية معه، شخص مع شخص. وفي الوقت ذاته، هناك جانب من طبيعتنا أرضي للغاية، ويربطنا بهذه الأرض.

اذًا، حتى هذه النقطة في دراستنا، تعلمنا أنه كنتيجة لسقوط الكروب المخلوق، صمم الله خطة بديلة لخلق كائن من نوع آخر، ومن مصدر آخر: من الأرض. ونفخ في ذلك الكائن نسمته الإلهية للحياة، لمقصد واحد عظيم: ليُبطل الميل للكبرياء.

المسئوليتان الأساسيتان للإنسان

مع ترسخ الحقائق الخمسة -المختصة بتفرد الإنسان المخلوق- في فكرنا، سننظر الآن على مسئوليتين رئيسيتين للإنسان (أو آدم) كما خلقه الله. هاتان المسئوليتان أو الهدفان مذكوران في الأصحاح الأول من سفر التكوين، حين أعلن الله قراره الأوَّلي بخلق الإنسان:

«وَقَالَ ٱللهُ: نَعْمَلُ الإنسان عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا». (تكوين ١: ٢٦)

لاحظ صيغة الجمع في العبارة: «وَقَالَ الله: نَعْمَلُ...»، هذا هو اللاهوت العظيم السرمدي (الثالوث) يعمل. ويُكمل العدد: «فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ البحر وَعَلَى طَيْرِ السماء وَعَلَى البهائم، وَعَلَى كُلِّ الأرض، وَعَلَى جَمِيعِ الدبابات التي تَدِبُّ عَلَى الأرض». أرجو أن تلاحظ مقاصد الله، فلم يقل عن آدم فقط، وإنما كل الجنس البشري: "فيتسلطوا... على كل الأرض".

إذًا، نرى في المقطع السابق مقصدين رئيسيين لله، هما وظيفتان مُنتظر من الإنسان أن يتممهما. دعونا الآن نستكشفهما.

١) يمثل اللّه تمثيلًا ظاهرًا:

على الإنسان أولًا أن يمثل الله بصورة واضحة لدى بقية الخليقة؛ فلقد طُبع شبه الله في الإنسان. كان تأثير نفخة روح الله في جسد الطين -الذي صنعته أيدي الخالق- أنه خلق كيانًا يمثل الخالق بنحو واضح -في بعض النواحي الخاصة- تجاه بقية الخليقة.

٢) ليمارس سلطان اللّه نيابة عنهِ:

أما هدف الله الثاني للإنسان، فهو أن يجعله يُمارس سلطانه

نيابة عنهِ. كان للإنسان أن يتسلط على سمك البحر، وعلى الطير في الهواء، وعلى الحيوانات، على كل شيء على الأرض؛ خُلق الإنسان لكي يمارس سلطانًا هائلًا، وهذا المقصد لم ينسَه الإنسان نسيانًا كاملًا في شخصيته الداخلية؛ فكثيرًا ما كانت لديه الرغبة للوصول للسلطان. ولكن، اليوم -بعد سقوط الإنسان- فهذه الرغبة التي في داخله، ليس لها أساس صحيح.

سمتان أساسيتان في علاقة الإنسان مع اللّه

في ذلك المقطع البارز من كلمة الله في (تكوين ١)، نرى سمتين رئيستين أيضًا في علاقة الإنسان نحو الله. وطبقًا لما شرحته عن الخلق، فهاتان السمتان هما:

(١) الشركة

(٢) الاعتمادية

أولًا- وقبل كل شيء، رغبة الله الأساسية في خلقه لآدم، هو أن يكون في شركة معه؛ فالله رب شخصي، يهوه (Jehovah)، وهو الذي خلق شخصًا بشريًا (آدم)؛ من أجل علاقة شخصية بينهما. وفي الحقيقة، لم يجد الإنسان يومًا الراحة الحقيقية، بمعزل عن علاقة شخصية مع خالقه.

ثانيًا- خُلق الإنسان معتمدًا على الله، وإذا بقي معتمدًا عليه، فسوف يتمكن هذا الكائن المخلوق من ممارسة سلطان الله نيابة عنه، وبحفاظه على علاقة الاعتماد على الله، يكون معصومًا من الخطية، ولديه مناعة ضدها. وهنا نجد فكرة رئيسية عن السمة الثانية للإنسان المخلوق: المفتاح الرئيسي للسعادة البشرية تكمن في الاعتماد على الله.

التجاوب مع مقاصد الله

ربما ينبهك الروح القدس بشيء في داخلك الآن: قد يُذكرك بجوانب من حياتك، سعيت فيها لتحقيق الاكتفاء خارج نطاق العلاقة مع الخالق. وربما تكون قد رأيت العواقب السلبية لهذا القرار، أو لذلك التمرد. فإن كنت تشعر أنَّ هذا ينطبق عليك؛ أود أن نصلي بخصوص هذا الشأن.

دعنا أولًا -كأساس لصلاتنا- نأخذ لحظة في مراجعة ما تعلمناه في هذا الفصل. بدأنا بالنظر إلى خطة الله البديلة، الخطة التي صممها ليبطل تأثير تمرد لوسيفر (تذكر: كانت الكبرياء هي الجذر لتمرد ذاك المخلوق الجميل، الذي ملأه الله بالجمال والسلطة). وجاء رد الله على سقوط لوسيفر، بأن صنع خليقة من نوع مختلف، ومُعد لها أن تأخذ مكان لوسيفر. تلك الخليقة كانت الإنسان، أو كما لقبته اللغة العبرية "آدم".

خلق الله آدم بصورة مختلفة عن سائر الخليقة، طريقة صُمِّمت في عقل الخالق لمقاومة الكبرياء. خلقه الله من طين (مادة وضيعة جدًا)، وفي الوقت ذاته تنازل الله ونفخ فيه من روحه، وبذلك الفعل من جانب الله، نرى اشتمال الإنسان في ذاته على الأعلى والأدنى. فمن خلال روح الإنسان (الجزء الآتي من الله) يرتبط الإنسان بالله. ومن خلال جسد الإنسان (الذي من تراب الأرض) يرتبط الإنسان بالعالم.

رجاء التوقف للحظة؛ لتتأمل مليًا آخر عبارتين. سيساعدك هذا لتفهم لماذا تشعر أحيانًا -في أعماقك- بما هو سامٍ جدًا، وفي ذات الوقت تشعر بشيء متدني جدًا في داخلك؛ فتكون النتيجة صراعًا داخليًا. علينا التذكر أنَّ في داخلنا شيئًا أرضيًا يربطنا بالعالم، وشيئًا آخر من الله يربطنا به. وفي حقيقة الأمر، نحن خُلقنا لنكون في شركة مع الله، وهو ما أود أن نصلي بخصوصه الآن. إن أردتَ فلتشاركني هذه الصلاة:

أيها الرب، كم أنا شاكر لك؛ لأنك قمت بتصميم خطة بديلة بخلقك للإنسان، وأعطيته الإمكانية أن يحيا متواضعًا تجاهك. لقد خلقتني لتكون لي شركة معك، وأعطيتني روحًا تمكِّنني من فعل ذلك. تلك هي العلاقة التي خُلقتُ لأجلها، وتلك هي الشركة التي أبتغيها. أعترف

لـك عـن المواضـع الـتي قاومـت فيهـا مقاصـدك في حيـاتي. تلـك المجـالات الـتي نبهـني روح القـدوس لهـا، بينمـا كنـتُ أقـرأ هـذا الفصـل. [تكلـم مـع الـرب عـن تلـك المجـالات بأسـمائها]

يـا سـيدي، تقـول كلمتـك في (روميـة ٢: ٤): إنَّ لطـف الله يقتادنـا إلى التوبـة؛ وأنـا أشـكرك مـن أجـل لطفـك تجـاهي، أختـار أن أتوافـق معـك، ومـع ملكوتـك. أختـار أن أتبُعـك. أختـار أن أسـتقبل نعمتـك، الـتي تمكنـني مـن أخـذ قـرارات تـسرك. قـرارات ينتـج عنهـا -في مسـيري خلفـك- أن أكـون بالقـرب منـك بقيـة حيـاتي، وإلى أبـد الآبديـن. آمـين.

الفصل الرابع

سقوط الإنسان

في ما سبق، نظرنا إلي البدايات، إلى أول واقعة في تاريخ الكون تم فيها تطبيق القانون الكوني الخاص بالكبرياء مقابل الاتضاع «أَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ». كانت هذه الحادثة هي سقوط الشيطان. ولقد رأينا رواية الكتاب المقدس لهذه الحادثة في حزقيال ٢٨ وإشعياء ١٤. لقد وصفت هذه المقاطع الشيطان (لوسيفر) الكروب المميز بالحكمة والجمال، الذي كان يملك مكانة متميزة في الكرامة في السماء. ورأينا كيف تكبر بسبب حكمته وجماله اللذين أُعطيا له من الله الخالق. قاده كبريائه بسبب عظمته إلى التمرد على الله، كما أنه أثار تمردًا بين الملائكة الذين كانوا تحت امره الشخصي. وفي النهاية، أقنعهم لوسيفر جميعًا ثلث الكائنات السماوية بأن يتحدوا معه في تمرده ضد الله. فماذا كان إذًا دافعه الأساسي؟ أن يرفع نفسه وأن يجعل نفسه مساويًا لله القدير.

تبعات تمرد لوسيفر

كنتيجة لهذا التمرد المأسوي والمؤسف، شهدنا أول إظهار

للجانب السلبي من القانون الأبدي الثابت الذي كنا ندرسه: «أَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ». عندما أراد لوسيفر أن يرفع نفسه، إنزلق وسقط. وبالتبعية سقط معه كل ملائكته. وبذلك تحول من كونه لوسيفر المشرق المتألق الممجد إلى كونه الشيطان، عدو الله والإنسان.

ثم رأينا الخطة البديلة التي صممها الله أن يخلق كائن من مواد أولية ومن أصل أكثر تواضعًا. ولقد أشرت إلى بعض الصفات الفريدة التي ميزت هذا المخلوق الذي قرر ألله أنه سيحل محل لوسيفر. كان هذا المخلوق هو الإنسان، أو آدم. وبشكل متعمد خلق الله الإنسان بحيث تُضعف طريقة خلقه من ميوله نحو الكبرياء.

وقمنا بدراسة خمس سمات فريدة، ميَّزت الإنسان عن بقية الخليقة. **أولًا**: صُمِّم الإنسان ليقيم علاقة شخصية مع شخص الله. **ثانيًا**: في خلق الإنسان، كان على الله أن يتنازل؛ فقد انحنى ليشكل جسد آدم من الطين، وانحنى أكثر لينفخ في فمه وأنفه، اللذين تكونا من الطين. **ثالثًا**: أعطي الله نفسه للإنسان. فقد نفخ فيه أنفاسه الإلهية الأبدية، روحه. **رابعًا**: في خلق الله للإنسان، امتزج ما هو سامٍ مع ما هو وضيع. السامي هو النسمة الآتية من الله، والوضيع هو الطين، أو التراب الذي صُنع

منه الإنسان. **خامسًا**: للإنسان علاقة ذات طابع ثنائي: فمن خلال روحه يتواصل مع الله، ومن خلال جسده يرتبط بالعالم، العالم الترابي الذي أُخذ منه.

تكرار المأساة

في هذا الفصل سنلقي نظرة على المأساة العظمى في تاريخ البشرية: سقوط الإنسان. بعد أن جعل الشيطان -الملاك الساقط- من نفسه عدوًا لكل من الله والإنسان. أمَّا عداوته نحو الإنسان فلسببين: أولهما- مهاجمة صورة الله فيه، فالإنسان يمَثل الله على نحو خاص ومميز عن سائر الخليقة. لا يستطيع الشيطان أن يَمس الله في ذاته؛ لذلك يشن الحرب على صورته: الإنسان. كان هدفه وشهوته أن يدنس تلك الصورة، أن يذلها ويدمرها؛ فعمل جاهدًا وبقوة حتى النهاية. السبب الثاني الذي جعل الخصم يكن العداء بشدة للإنسان، معرفته أنَّ الإنسان سيأخذ مكانه في السيادة! وتبعًا لذلك، فمن لحظة خلق الإنسان، يعده الشيطان عدوًا يجب القضاء عليه.

أود أن أبدأ بملاحظة فارقة وعجيبة: لقد وجَّه الشيطان الإنسان وتسبب في سقوطه، من خلال الدافع نفسه الذي أسقطه هو! والحادثة بأكملها تم شرحها بالتفصيل في الأصحاح الثالث من سفر التكوين. جاء الشيطان -في هيئة حية- إلى الجنة،

حيث وضع الله آدم مع زوجته حواء، وهناك أغواهما هذا العدو للعصيان والتمرد. وهذا ما سجَّله لنا الوحي:

«كَانَتِ ٱلْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ ٱلْبَرِّيَّةِ ٱلَّتِي عَمِلَهَا ٱلرَّبُّ ٱلْإِلَهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: أَحَقًّا قَالَ ٱللهُ لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ ٱلْجَنَّةِ؟ فَقَالَتِ ٱلْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ ٱلْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي فِي وَسَطِ ٱلْجَنَّةِ فَقَالَ ٱللهُ: لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَمَسَّاهُ لِئَلَّا تَمُوتَا... بَلِ ٱللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَٱللهِ عَارِفَيْنِ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ».

كلنا على دراية كافية بالقصة السابقة، وما تبعها بعد ذلك. نعرف أنَّ حواء قد أغويت بتجربة الحية (الشيطان) لها. فعندما أغراها، مدت يدها وأخذت من الثمرة، ثم بدأت بإقناع آدم زوجها؛ ليشاركها في عصيانها. (انظر تكوين ٣:٦)

ثلاث مراحل للتجربة

أريد أن أشير تحديدًا إلى المراحل الثلاثة للتجربة، التي تكشف النقاب عن الطريقة التي جاء بها الشيطان ليقنع آدم وحواء بالتمرد.

١) سعى الشيطان ليشكك في "كلمة" الله:

وجه الشيطان هجمته الأولى ضد كلام الله الذي تواصل به

مع آدم وحواء. فلقد قال الرب لآدم: «وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ ٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا، لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ» (تكوين ٢: ١٧). لذلك، كانت محاولة الشيطان الأولى هي التشكيك في كلمة الله، إذ قال لحواء: «أَحَقًّا قَالَ ٱللهُ لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ ٱلْجَنَّةِ؟» (تكوين ٣: ١). من الواضح أنَّ العدو كان ماهرًا للغاية، فلم يبدأ بالإنكار المباشر. كيف بدأ؟ بدأ بطرح السؤال مشككًا، فكان هدفه هو تشكيكهما في كلمة الله.

٢) سعى الشيطان ليشكك في "شخصية" اللّه:

عندما استقبلت حواء السؤال بترحاب، بدأ الشيطان بالتشكيك في الله ذاته: «فَقَالَتِ ٱلْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: لَنْ تَمُوتَا! بَلِ ٱللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَٱللهِ عَارِفَيْنِ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ». (تكوين ٣: ٤ - ٥) هل ترى ما تحويه هذه العبارة؟ إنَّ مضمونها هو أنَّ الله طاغية ومستبد؛ إذ أنه أبقى آدم وحواء -بعد أن خلقهما- في مكانة أدنى بكثير مما يستحقانه، وأنَّ لديهما إمكانات وقدرات ليصبحا أعظم مما هما فيه، لكن الله منع ذلك عنهما، وأخضعهما له باستبداد ودون وجه حق.

بكلمات أخرى، بعد التشكيك في كلمة الله، بدأ الشيطان في التشكيك في شخصية الله. كانت طريقته في الهجوم هي إعطائهم

صورة خاطئة عن خالقهم المحب! أراد أن يصور لهما الرب على أنه طاغية ظالم.

إذًا، طريقة إغواء الشيطان جاءت أولًا بالتشكيك في كلمة الله، ثم بالطعن في شخصية الله نفسهِ.

٣) عرض الشيطان "المساواة" مع اللّه:

قدم الشيطان لآدم وحواء ذات الدافع والهدف الذي تسبب في سقوطه هو نفسه. عرض عليهما إمكانية التساوي مع الله، بقوله: «يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَٱللهِ عَارِفَيْنِ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ». (تكوين ٣: ٥) فكأنه يقول: «لن تصيرا في احتياج للاعتماد على الله فيما بعد؛ سيكون لديكما معرفة داخلكما، وتكونان متساويين معه». مرة أخرى -خلال هذا العرض المقدم لآدم وحواء- نرى المشكلة نفسها التي أدت إلى سقوط لوسيفر. هل تتذكر ما قاله لوسيفر في نبوة إشعياء؟ «أَصِيرُ مِثْلَ العلي» (إشعياء ١٤:١٤). هنا، يقول الشيطان لآدم وحواء: «وَتَكُونَانِ كَٱللهِ»! فماذا كان يقول لهما؟ إنهما لا يستحقان وضعهما الحالي من الخضوع والاعتماد؛ فلديهما المقدرة ليصيرا في مكانة أعلى. كأنه يقول لهما: «تطلعا للأعلى. تطلعا لمزيد من المعرفة، وهي التي ستحرركم من عبودية الاعتماد على خالقكم». وقبلا الأكذوبة؛ فسقطا.

سبعة نتائج لسقوط آدم

فيما يلي، أود أن أشير إلى سبع نتائج لسقوط الإنسان:

١) انقطعت العلاقة الشخصية المباشرة مع الله: هل تتذكر الهدف الأساسي من خلق الله للإنسان؟ لقد خُلق ليكون في شركة مع خالقه، وعندما حدث التمرد والخطية؛ انكسرت هذه الشركة.

٢) انقطع مصدر الحياة عن الإنسان: أصبح الجنس البشري الآن مثل "بطارية" لا يمكن إعادة شحنها. فنسمة الحياة الإلهية التي أُعطيت له في البداءة، حفظت آدم حيًا لمئات السنين. ولكنه فُصِل من مصدر الشحن، كان عليه أن يموت في النهاية.

٣) أصبح الإنسان خاضعًا لما يسميه الكتاب المقدس "الفساد". لقد وقع فريسة لعلل كثيرة، مثل: الألم، والمرض، والسقم، والتجاعيد، والشيخوخة، والموت.

٤) أصبح الإنسان مُعرَّضًا للهجمات الشيطانية، ونشاط الأرواح الشريرة: قبل السقوط، كان آدم وحواء يعيشان في عالم لا تتمكن المؤثرات الشيطانية من اختراقه. ولكن من ذلك الوقت فصاعدًا، أصبح كل الجنس البشري معرضًا لهجمات شيطانية، ومؤثرات شريرة.

٥) أصبح الإنسان عبدًا بدلًا من ملكًا: كان قصد الله للإنسان أن يتسلط على كل العالم نيابة عنه. وعندما فقد وضعه المعتمد على الله؛ لم يعُد يتسلط، بل على العكس، لقد أصبح عبدًا مُتذلِّلًا، عبدًا للخطية، عبدًا للشيطان، عبدًا للفساد، عبدًا للمرض والموت.

٦) أصبح عالم الإنسان كله خاضعًا للفناء والزوال: فبسبب سقوط آدم، أصبح هناك تغير في كل أجواء الخليقة، التي أقام الله آدم عليها (انظر رسالة رومية ٨: ١٩ - ٢٢). تأثر كل شيء كان تحت سلطانهِ. ومثلما أثر سقوط لوسيفر على كل الملائكة التابعة له، هكذا أثر سقوط آدم على كل الخليقة التي تسلط عليها. أصبحت كل الخليقة خاضعة للفناء، للزوال، للفساد. فالأشياء التي لم تئن قط، والأشياء التي لم تفسد أو تتعفن من قبل؛ بدأت تعاني، وتفسد، وتموت! حدث هذا للحيوانات والنباتات ولكل شيء في الخليقة. فكنتيجة لسقوط آدم، صار عالمه كله خاضعًا للفناء والتحلل.

٧) أصبح الإنسان مشابهًا للشيطان في خطية التمرد: كان العدو متمردًا منذ فترة طويلة، ولكن الآن انضمت إليه فرقة أخرى: الجنس الآدمي.

نرى بكل وضوح أنَّ الجنس البشري يُكرر خطية

الشـيطان. لقـد خُلقـوا على مسـتوى مُبـارك، ومُعـيَّن ومرتـب من الله. ولمَّـا سـقطوا فريسـة للكبريـاء، وتطلعـوا للمسـاواة مـع الله؛ سـقطوا.

لنتذكـر مـرة أخـرى الجـزء الأول مـن القانـون الكـوني الذي درسـناه: «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ»، ولكـن هـذه ليسـت نهايـة القصـة. في الفصـل التـالي، سـنرى مـاذا فعـل الله تجـاه سـقوط الإنسـان.

الفصل الخامس

تنازُل اللّه المستمر

على مدار الفصول السابقة، كنا نستكشف القانون الكوني والأبدي الذي أعلنه يسوع في (متى ٢٣: ١٢): «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ».

في البداية، رأينا هذا القانون واضحًا في الشرح الكتابي لسقوط لوسيفر وخزيه. ثم رأيناه جليًا في قصة آدم وحواء، اللذين استسلما لتجربة الشيطان لكي يرتفعا ويتساويا مع الله! مما أدى إلى سقوطهما وخزيهما أيضًا.

في حالة كل من لوسيفر وآدم، كان سبب السقوط واحدًا: تمجيد الذات والكبرياء. حين أراد الشيطان أن يسقط آدم، قدم له نفس الدافع الذي تسبب في سقوطه هو نفسه. فكما حدَّث نفسه: «أَصِيرُ مِثْلَ ٱلْعَلِيِّ» (إشعياء ١٤:١٤)، جاء إلى آدم وحواء بالتجربة ذاتها، قائلًا: «إن أكلتما من هذه الثمرة، ستكونان مثل الله نفسه». كان الدافع نفسه في كلتا الحالتين: يريد المخلوق أن يتساوى مع الخالق!

استجابة الله المذهلة

كان رد فعل الله على سقوط الشيطان هو خلق آدم. ولفعل ذلك؛ انحنى الله إلى التراب! فماذا فعل الله تجاه سقوط آدم؟ إجابة هذا السؤال هو عنوان هذا الفصل: "تنازُل الله المستمر". كما ترى، تجاوب الله الدائم مع الكبرياء هو الاتضاع. فكلما تقابل الله مع الكبرياء، أعلن اتضاعًا. اسمحوا لي أن ألخص الأمر بهذه الطريقة: بعد سقوط الإنسان، كان رد فعل الله هو الانتقال من الخلق إلى الفداء؛ فكان عمله العظيم التالي هو الفداء.

سقط الإنسان، وتغرب عن الله في تمرده الكامل. ومع ذلك، لم يتخلَ الله عنه (كم يستحق الشكر!). وفي شخص المسيح، تنازل الله إلى أدنى نقطة! اتحد الله بالكامل -في المسيح- مع الجنس البشري الساقط، وكَفَّر عن ذنب كل إنسان. ثم، ليكلل الأمر بجملتهِ، بعد أن افتدى تلك الخليقة الساقطة، رفعها لأعلى مكانة في الكون. وبرهن -بإبداع- على مبدأ الاتضاع، الذي هو موضوع دراسة بهذا الكتاب. ذلك المبدأ الذي سندرس المزيد عنه في فصول قادمة، مؤكدين أنَّ «الطريق للارتفاع هو بالاتضاع».

اشتراك المسيح في طبيعتنا

لنبدأ بالنظر إلى بعض الشواهد الكتابية التي تتحدث عن

كيفية اشتراك المسيح في طبيعة الجنس البشري، وتكفيره عن ذنبهم. الشاهد الأول من الرسالة إلى العبرانيين:

«فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ ٱلْأَوْلَادُ فِي ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ ٱشْتَرَكَ هُوَ أيضًا كَذَلِكَ فِيهِمَا، لِكَيْ يُبِيدَ بِٱلْمَوْتِ ذَاكَ ٱلَّذِي لَهُ سُلْطَانُ ٱلْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ، وَيُعْتِقَ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ -خَوْفًا مِنَ ٱلْمَوْتِ- كَانُوا جَمِيعًا كُلَّ حَيَاتِهِمْ تَحْتَ ٱلْعُبُودِيَّةِ». (العبرانيين ٢: ١٤-١٥)

تذكَّر الحق الذي أشرت إليه سابقًا: عندما تمرد الإنسان، أصبح عبدًا بدلًا من كونه ملكًا. ونتيجة للسقوط، لم يعُد الإنسان حرًا. وعلى نقيض كل ما اشتهاه، صار عبدًا للشيطان، عبدًا للموت، عبدًا للفساد.

من أجل تحرير الإنسان من هذه العبودية، أخذ يسوع الطبيعة الآدمية، صورة البشرية. تشارك مخلصنا بالكامل في بشريتنا. أخذ لنفسه الجسد والدم الذي لك ولي، لماذا؟ حتى يبيد بموته إبليس، الذي يملك سلطان الموت. فمن خلال موته كبشر، قدم لنا يسوع الحرية من الموت، نحن جميعًا الذين كل حياتنا كنا مستعبدين للخوف من الموت. لقد اشترك بالكامل في طبيعتنا، أخذ يسوع الطبيعة البشرية، الطبيعة الساقطة.

هذا الحق نجده أيضًا في رسالة بطرس الأولى (٢: ٢٤): «الذي

حَمَلَ هُوَ نَفْسُهُ خَطَايَانَا فِي جَسَدِهِ عَلَى ٱلْخَشَبَةِ، لِكَيْ نَمُوتَ عَنِ ٱلْخَطَايَا فَنَحْيَا لِلْبِرِّ. ٱلَّذِي بِجَلْدَتِهِ شُفِيتُمْ».

تشرح هذه الآية اشتراك يسوع الكامل في الطبيعة البشرية. فعلى الصليب، أخذ كل خطايانا وذنوبنا. لقد أصبح هو نفسه ذبيحة الإثم العظيمة والأخيرة، التي كَفَّرت خطايا وذنوب الجنس البشري. حمل خطايانا. تحمل عقابنا. أصبحت أوجاعنا أوجاعه؛ فمات موتنا. كممثل لنا، كَفَّر يسوع "آدَمُ ٱلْأَخِيرُ" (١كورنثوس ١٥: ٤٥) عن ذنوب تمردنا بتعليقه على الصليب، وسفك دمائه، وقدم نفسه بالتمام ليفتدينا.

نرى هذه الحقيقة مكررة في العبارة البسيطة الواردة في بطرس الأولى (٣: ١٨): «إِنَّ ٱلْمَسِيحَ أَيضًا تَأَلَّمَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ ٱلْخَطَايَا، ٱلْبَارُّ مِنْ أَجْلِ ٱلْأَثَمَةِ، لِكَيْ يُقَرِّبَنَا إِلَى ٱللهِ، مُمَاتًا فِي ٱلْجَسَدِ وَلَكِنْ مُحْيىً فِي ٱلرُّوحِ». ومرة أخرى، للاشتراك الكامل في الطبيعة؛ أخذ البار مكان الأثيم. الخادم المطيع أخذ مكان الذي تحول وتمرد ضد الله. مات يسوع الميتة التي كنا نحن نستحقها؛ ليُطلقنا من خوف الموت، ويُحضرنا إلى الله مجددًا. فعل كل ذلك ليصالحنا مع الله.

يمكننا أن نتشارك في طبيعة المسيح

يبدو واضحًا تمامًا -من خلال الكتاب المقدس- أنَّ يسوع

قد اشترك بالكامل في طبيعتنا. ومع ذلك، عندما ننظر إلى ما هو وراء اشتراك المسيح في طبيعتنا، نكتشف حقيقة مذهلة: أنه من خلال الإيمان والتوبة، يمكننا -نحن- أن نشترك في طبيعة المسيح. فلا نشترك في موته فقط، لكننا نشترك أيضًا في تمجيده العتيد. هذا هو سر التشارك العظيم: أولًا، المسيح معنا. ثم، نحن -بالإيمان- مع المسيح.

«ٱللهُ ٱلَّذِي هُوَ غَنِيٌّ فِي ٱلرَّحْمَةِ، مِنْ أَجْلِ مَحَبَّتِهِ ٱلْكَثِيرَةِ التي أَحَبَّنَا بِهَا، وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بِٱلْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ ٱلْمَسِيحِ -بِٱلنِّعْمَةِ أَنْتُمْ مُخَلَّصُونَ- وَأَقَامَنَا مَعَهُ، وَأَجْلَسَنَا مَعَهُ فِي ٱلسَّمَاوِيَّاتِ فِي ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ». (أفسس٢: ٤-٦)

هل ترى أهمية هذه النقطة؟ من المهم لنا أن نلاحظ الوجه الآخر للتشارك، الوجه الآخر للعملة. لقد اشترك المسيح أولًا في طبيعتنا، نحن الجنس الساقط. لقد أخذ مكاننا، ودفع عقوبتنا. مات نيابة عنا، وكَفَّر عن ذنبنا.

وهناك المزيد. فمن خلال إدراكنا لاشتراك المسيح معنا في طبيعتنا، يمكننا -بالتالي- أن نشترك في طبيعته بالإيمان، ومن خلال ذلك نشترك معه في كل ما يلي موته.

عندما ندرس المقطع السابق من رسالة أفسس (إصحاح٢)؛ نكتشف ثلاث خطوات عظيمة في اشتراكنا في طبيعة يسوع:

١) أحيانا الله مع المسيح.

٢) أقامنا الله مع المسيح. (ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد)

٣) أجلسنا مع المسيح يسوع في السماويات.

إن المسيح جالس على العرش، وقد أجلسنا الله معه. وهذا يعني أننا قد تُوجنا في المسيح. وبهذا التتويج، أكمل الله عملية الفداء الكامل لكل منا.

برجاء تذكر تلك الخطوات التصاعدية الثلاثة، في اتحادنا مع يسوع:

١. أحيانا معه.

٢. أقامنا معه.

٣. أجلسنا معه على العرش.

فهو المبدأ نفسه الذي رأيناه على مر هذه الدراسة: «الطريق للارتفاع هو بالاتضاع». فمن أدنى الأدنى نصل إلى الأعلى.

نحن المفديون

وأخيرًا، من خلال هذا التتويج، سيجعل الله من هذه الخليقة المفدية -التي كانت قبلًا ساقطة وأقامها- إظهاره الأبدي.

فهـذا إعلانـه لـكل الكـون: إنَّ الله يرفـع المتضـع لـلأعالي. أريـدك أن تـرى ذلـك المبـدأ الذي تدفـق خـلال كل مـا تـم ذكـره في الفصـول السـابقة. فالأمـر ليـس مجـرد تاريـخ، وإنمـا هـو تنفيـذ لقانـون كـوني: «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ». (مـتى ٢٣: ١٢)

يـرجى ملاحظـة مـا يقـوله الله عـن دور المفديـين في بقيـة تاريـخ الكـون: إنَّ لهـم مكانـة خاصـة، ودور خـاص. نـرى هـذا الحـق بـكل وضـوح في ثلاثـة مقاطـع مـن رسـالة بولـس الرسـول لأهـل أفسـس. وهـذا هـو المقطـع الأول:

«ٱلَّذِي فِيهِ أيضًا نِلْنَا نَصِيبًا، مُعَيَّنِينَ سَابِقًا حَسَبَ قَصْدِ الذي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ، لِنَكُونَ لِمَدْحِ مَجْدِهِ، نَحْنُ ٱلَّذِينَ قَدْ سَبَقَ رَجَاؤُنَا فِي ٱلْمَسِيحِ».

بطريقـة فريـدة، نحـن السـاقطين افتُدينـا، ورُفعنـا مـن الأسـافل إلى الأعالي. يجـب أن نكـون الإظهـار الذي سـيكون لمـدح مجـد الله.

فلننظر إلى (أفسس ٢: ٦-٧)، المقطع الثاني المقتبس من تلك الرسالة.

رأينـا -سـابقًا- العدديـن (٥ و٦) يتحدثـان عـن اشـتراكنا في طبيعـة المسـيح، وأنـه أحيانـا معـه، وأقامنـا معـه، وأجلسـنا معـه على العـرش. وسنكتشـف الآن مقصـده مـن فعـل تلـك الأعمـال الثلاثـة:

«وَأَقَامَنَا مَعَهُ، وَأَجْلَسَنَا مَعَهُ فِي ٱلسَّمَاوِيَّاتِ فِي ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ، لِيُظْهِرَ فِي ٱلدُّهُورِ ٱلْآتِيَةِ غِنَى نِعْمَتِهِ ٱلْفَائِقَ، بِٱللُّطْفِ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ».

هنا قصد الله من جلوسنا مع المسيح على العرش: «لِيُظْهِرَ فِي ٱلدُّهُورِ ٱلْآتِيَةِ غِنَى نِعْمَتِهِ ٱلْفَائِقَ، بِٱللُّطْفِ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ». من فضلك، لاحظ مرة أخرى أنَّ هذه المخلوقات الساقطة -المفدية- يجب أن تكون الإظهار الأبدي، على المبدأ الذي كنا ندرسه: إن الله يأخذ المتضع ويرفعه إلى الأعلى.

وسندرس مقطع أخير من الرسالة إلى أفسس لكي نشرح نفس هذه النقطة:

«لِكَيْ يُعَرَّفَ ٱلْآنَ عِنْدَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلسَّلَاطِينِ فِي ٱلسَّمَاوِيَّاتِ، بِوَاسِطَةِ ٱلْكَنِيسَةِ، بِحِكْمَةِ ٱللهِ ٱلْمُتَنَوِّعَةِ».

فمن خلالنا، سيُظهر الله حكمته المتنوعة لكل الخليقة. لكل الممالك في السماء والأرض، لكل الدهور الآتية، سوف تتجلى حكمة الله باستمرار في هذا المبدأ: إن الله يرفع المتضع.

حقيقة الفداء

ونحن نختم هذا الفصل، الذي درسنا فيه عمل الله الحي للفداء، أود أن أعطي لك ثلاث عبارات مختصرة. أعتقد أن هذه

العبارات تبرز جوهر حقيقة الفداء التي كنا نستكشفها:

١- البعيد صار قريبًا.

٢- الوضيع أصبح ممجدًا.

٣- المحتقر تحول للمجد.

ما قصد الله النهائي في كل عمله الفدائي الذي قدمه نيابة عنا؟ إنَّه عدم ترك المجال للفخر بأي كائن تم خلقه.

قبل أن تنتقل عزيزي القارئ إلى الفصل التالي، أشجعك على قضاء بعض الوقت في التأمل في الحقائق الأساسية التي اكتشفناها في هذا الفصل. ماذا يعني لك "شخصيًا" أنَّ الله الخالق جعلك حيًا مع المسيح، وأنَّه اتضع ليرفعك، ويقيمك مع المسيح؟ وعندما تفكر في هذه الأسئلة، تذكر أنها لا تتوقف عند هذا الحد. فقد لقد أجلسك الله معه في السماويات؛ ليس غدًا، ولا بعد أن تموت وتنتقل إلى السماء، لكن الآن! تأمل في ذلك وتخيله. ماذا يعني لك أنَّ الله توجك في المسيح؟ كيف يؤثر فيك أن تعرف أنَّ الرب جعلك مخلوقًا مفديًا، سقط مرة واحدة، لكنه قام الآن، وصار درسًا للكون؟ هل تدرك حجم حقيقة أنَّ الله جعلك إظهاره الأبدي للكون كله، برفعه لك من الأدنى إلى الأعلى؟.

الجزء الثاني

أمثلة رئيسية عن الكبرياء والاتضاع

الفصل السادس

جوهر الكبرياء

القانـون الأبـدي الذي أعلنـه يسـوع، في الاختيـار بـين الكبريـاء والاتضـاع: «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِع» (متى ٢٣: ١٢)

"الكبريـاء مقابـل الاتضـاع" هـو حقًـا موضـوع واسـع؛ فهـو يشـمل كل الكـون، السـماوات والأرض وحـتى الهاويـة، وعـبر كل الأزمـان. ومـع أن هـذا المفهـوم هـو أوسـع مـن أن يُقـاس، إلَّا أنـه ينطبـق بدرجـة خاصـة على الحيـاة الشـخصية لـكل واحـد منـا. وأرجـو أن يكـون تأملـك -في نهايـة الفصـل السـابق- قـد أعطـى لـك رؤيـةً وفهمًـا عـن كيفيـة تطبيـق هـذا القانـون الكـوني عليـك أنـتَ شـخصيًا.

خمس مراحل للكبرياء والتواضع

لنبـدأ هـذا الفصـل بتصنيـف مـا قـد قمنـا سـابقًا بدراسـته في خمـس مراحـل رئيسـية:

المرحلـة الأولى: أول خطيـة للكبريـاء: أول خطيـة في الكـون

كانت خطية الكبرياء واقترفها ملاك، لا إنسان. وحدثت تلك الخطية في السماء، وليس على الأرض. وكان اسم ذلك الملاك لوسيفر، الملاك المنير والمجيد. مع أنه كروب جميل، إلَّا أنَّ خطية الكبرياء -وما تبعها من تمرد لاحق- تسبب في طرده من محضر الله. وعندها تغير اسمه إلى الشيطان: الخصم، والمقاوم.

المرحلة الثانية: الخلق: جاء رد فعل الله لخطية الكبرياء الأولى هذه، بخلق الإنسان "آدم" من التراب. تنازل الله إلى التراب ليصنع تلك الخليقة؛ فقد أراد أن يزيل أساس الكبرياء في الإنسان وفي الخليقة بأسرها.

المرحلة الثالثة: سقوط الإنسان: بكل أسف، أغرى الشيطان (العدو) الإنسان؛ لارتكاب خطية الكبرياء نفسها التي سقط هو فيها. وها قد سقط الإنسان أيضًا، مذنبًا بخطية الكبرياء.

المرحلة الرابعة: التجسد: كان لدى الله خطة لفداء الإنسان الساقط، وفي هذه الخطة تنازل الله أكثر؛ ففي المسيح، تنازل إلى مستوى الطبيعة الساقطة. أصبح واحدًا مع الجنس البشري؛ ليرفع الإنسان من حالته الساقطة إلى مكان الشركة مع الله طوال الأبدية.

المرحلة الخامسة: الفداء: صنع الله الفداء لكي تملك تلك الخليقة المفدية -المفديون من نسل آدم- مع الله طوال الأبدية، في إشراقة مجد السماء. وسوف يكونون إعلانًا لكل الكون، عن الإله الذي يعطي المواضع العليا لمن هم الأقل.

وبالمرور في كل ما سردته كلمة الله عن معاملاته مع خليقته، نرى ذلك المبدأ: الله يُذل المتكبر ويرفع المتواضع. مَن يرفع ذاته هو من سيُذل، ولكن مَن يضع نفسه فسيتم رفعه.

جوهر القضية

يجب أن نضع في اعتبارنا دائمًا، أنَّ الطبيعة الأساسية للخطية التي وقع فيها آدم -والتي استدرجه الشيطان لفعلها- هي ذات خطية الشيطان نفسه. في (تكوين ٣) قدم الشيطان تجربته الكاملة لآدم وحواء، التي هي عصيان الله بأن يأكلا من ثمرة الشجرة التي في وسط الجنة، تلك الثمرة التي نهاهما الله عنها. نرى ذلك الشيطان في هيئة حية، قائلًا لهما، «بَلِ ٱللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَٱللهِ عَارِفَيْنِ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ». (تكوين ٣: ٥)

الذي دفع الشيطان إلى تمرده في السماء يتلخص فيما قاله: «أَصِيرُ مِثْلَ ٱلْعَلِيِّ» (إِشَعْيَاءَ ١٤:١٤). تلك العبارة هي ملخص تمجيد الذات. ومن ثم، صاغ الشيطان الكلمات ذاتها فعليًا بقوله لآدم

وحـواء: «عندمـا تـأكلان مـن شـجرة معرفـة الخـير والشر، سـتصيران مثـل الله، مسـاويين لله». عـرض الشـيطان ذات الدافـع، الذي ينجـم عنـه ذات العواقـب المدمـرة: الكبريـاء الـتي تـؤدي إلى السـقوط.

مـا هـو إذًا أصـل طبيعـة الكبريـاء؟ فمـن المهـم للغايـة أن نفهـم هـذا الأمـر. يمكـن أن ألخـص طبيعـة الكبريـاء في جملـة واحـدة مبـاشرة: تسـعى الكبريـاء للاسـتقلالية عـن الله. وفي كبريائهمـا، لـم ينكـر آدم وحـواء سـلطان الله في الكـون، لكنهمـا أخـذا هـذا القـرار الشـخصي: إنهمـا يسـتطيعان تدبـر أمورهمـا بدونـه، وإنهمـا لا يحتاجـان إليـه! وإذا تمكنـا مـن اكتسـاب معرفـة الخـير والـشر، فلـن يضطـرا بعـد ذلـك إلى الاعتمـاد على الله. مـرة أخـرى، أشـار الشـيطان في تجربتـه لآدم وحـواء إلى أنهمـا كانـا في عبوديـة لله بسـبب تبعيتهمـا له، وهي مكانـة أقـل ممـا يسـتحقان، بمـا لهمـا مـن إمكانيـات. ووفـق المُجـرِب، سـيكون لهمـا وضـع أفضـل بـدون الاعتمـاد على الله.

جوهـر هـذه التجربـة يمكـن تلخيصـه في تلـك الكلمـة الواحدة: "الاسـتقلالية". تلـك الرغبـة في الاسـتقلال عـن الله -في حـد ذاتهـا- هي الكبريـاء. هـذه هي الكبريـاء الشـيطاني، الكبريـاء ذاتهـا الـتي أسـقطت لوسـيفر. وبـكل وضـوح، هنـاك عواقـب لمثـل هـذا النـوع مـن التوجـه. وأي حيـاة لا يحياهـا المـرء في اعتمـاد اختيـاري على الله؛ دافعهـا هي الكبريـاء.

وهنـاك خـداع ماكـر، فالكثـير مـن الأشـخاص -الذيـن لا يحسـبون أنفسـهم متكبريـن- هـم في الواقـع يسـعون لـكي يحيـوا حياتهـم دون اعتمـاد طـوعي على الله. لكـنَّ الدافـع وراء هـذا الأسـلوب في الحيـاة هـو الكبريـاء، ونتائـج الكبريـاء هي نفسـها دائمًـا: التمـرد والكـوارث.

رغبة حمقاء

في إنجيـل لوقـا (١٢)، روى يسـوع مثـلًا عـن رجـل كان مذنبًـا بنفـس نـوع هـذا الاتجـاه الخاطـئ تجـاه الله، إنـه نـوع مـن الاسـتقلالية، الـتي هي في الواقـع كبريـاء. وإن لـم ننتبـه لطبيعـة الكبريـاء -كمـا سـنقرأ في هـذه القصـة- فقـد لا نـرى الخطـأ الحقيـقي الذي ارتكبـه هـذا الرجـل الـثري:

«وَضَـرَبَ لَهُـمْ مَثَـلًا قَائِـلًا: إِنْسَـانٌ غَنِـيٌّ أَخْصَبَـتْ كُورَتُـهُ، فَفَكَّـرَ فِـي نَفْسِـهِ قَائِـلًا: مَـاذَا أَعْمَـلُ، لِأَنْ لَيْـسَ لِـي مَوْضِـعٌ أَجْمَـعُ فِيـهِ أَثْمَـارِي؟ وَقَـالَ: أَعْمَـلُ هَـذَا: أَهْـدِمُ مَخَازِنِـي وَأَبْنِـي أَعْظَـمَ، وَأَجْمَـعُ هُنَـاكَ جَمِيـعَ غَلَّاتِـي وَخَيْرَاتِـي، وَأَقُـولُ لِنَفْسِـي: يَـا نَفْـسُ لَـكِ خَيْـرَاتٌ كَثِيـرَةٌ، مَوْضُوعَـةٌ لِسِـنِينَ كَثِيـرَةٍ. اِسْـتَرِيحِي وَكُلِـي وَاشْـرَبِي وَافْرَحِـي». هـل سـمعت مـن قبـل -فـي عالمنـا المعاصـر- مثـل هـذا القـول؟ فمـا قالـه ذلـك الرجـل الغنـي يمثـل توجهًـا عامًـا شـائعًا فـي المجتمـع اليـوم. والآن، لنسـتكمل باقـي المثـل:

«قَالَ لَهُ ٱللهُ: يَا غَبِيُّ! هَذِهِ ٱللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ مِنْكَ، فَهَذِهِ ٱلَّتِي أَعْدَدْتَهَا لِمَنْ تَكُونُ؟ هَكَذَا ٱلَّذِي يَكْنِزُ لِنَفْسِهِ وَلَيْسَ هُوَ غَنِيًّا لِلهِ».

دعا الله ذلك الرجل الغني بالغبي! ومع ذلك، فما فعله ذلك الرجل هو ما يفعله الملايين من الأشخاص في حضارتنا المعاصرة: لقد اعتنى بنفسه بدرجة ما؛ كان حكيمًا ومديرًا جيدًا، ولديه القدرة -الجديرة بالثناء- على جني محصول جيد من حقله. وعندما عَلِم أنه بحاجه لمخزن أكبر سعة، كان لديه النظرة المستقبلية والقدرة لبنائه.

قد يعده معظم الناس رجلًا محترمًا وعاقلًا. في الحقيقة، يمكنه بسهولة أن يكون من مرتادي الكنائس، ويكون حاله مقبولًا في العديد من كنائسنا المعاصرة؛ فإن ذات التوجه موجود في ملايين ممن يدعون المسيحية، ويرتادون الكنائس اليوم.

ما المشكلة؟ لماذا دُعيَ غبيًا؟ وما جوهر خطيته؟ ها هي إجابتي: لقد تصرف كأنه مستقل عن الله، مع أنَّ كل نفس يتنفسه يعتمد على الله، وبذاره تنمو وتأتي بالمحاصيل الكثيرة بعمل وبركة الله، وصحته وقوته هي من إحسان الله.

كل شيء في حياته، كان يعتمد على الله اعتمادًا مطلقًا، ومع ذلك فشل أن يرى أو أن يدرك تلك الاعتمادية. حاول أن يحيا كما لو

أنَّ الأمـر ليـس كذلـك. كان جـذر هـذا التوجـه هـو الكبريـاء. فـفي جوهـره، تلـك الرغبـة بالاسـتقلال عـن الله هي الكبريـاء.

تعظم المعيشة

يُشـخِّص العهـد الجديـد مشـكلة الكبريـاء بـكل وضـوح. فعـلى سـبيل المثـال، دعونـا نقـرأ هـذا المقطـع مـن رسـالة يعقـوب:

«هَلُـمَّ ٱلْآنَ أَيُّهَـا ٱلْقَائِلُـونَ: نَذْهَـبُ ٱلْيَـوْمَ أَوْ غَـدًا إِلَـى هَـذِهِ ٱلْمَدِينَـةِ أَوْ تِلْـكَ، وَهُنَـاكَ نَصْـرِفُ سَـنَةً وَاحِـدَةً وَنَتَّجِـرُ وَنَرْبَـحُ. أَنْتُـمُ ٱلَّذِيـنَ لَا تَعْرِفُـونَ أَمْـرَ ٱلْغَـدِ! لِأَنَّـهُ مَـا هِـيَ حَيَاتُكُمْ؟ إِنَّهَـا بُخَـارٌ، يَظْهَـرُ قَلِيـلًا ثُـمَّ يَضْمَحِـلُّ. عِـوَضَ أَنْ تَقُولُـوا: إِنْ شَـاءَ ٱلـرَّبُّ وَعِشْـنَا نَفْعَـلُ هَـذَا أَوْ ذَاكَ. وَأَمَّـا ٱلْآنَ فَإِنَّكُـمْ تَفْتَخِـرُونَ فِـي تَعَظُّمِكُمْ. كُلُّ ٱفْتِخَـارٍ مِثْـلُ هَـذَا رَدِيءٌ. فَمَـنْ يَعْـرِفُ أَنْ يَعْمَـلَ حَسَـنًا وَلَا يَعْمَـلُ، فَذَلِـكَ خَطِيَّـةٌ لَـهُ». (رسالة يعقوب ٤: ١٣-١٧)

التفاخـر الذي يتـم التحـدث عنـه في هـذه الأعـداد هـو الكبرياء. هـو الرغبـة في الاسـتقلالية عـن الله، والتـصرف كمـا لـو أن لله ليـس له سـلطة حقيقيـة على حياتنـا. ويتلخـص الأمـر تمامًـا في العـدد التـالي مـن رسـالة يوحنـا الأولى:

«لِأَنَّ كُلَّ مَـا فِـي ٱلْعَالَـمِ: شَـهْوَةَ ٱلْجَسَـدِ، وَشَـهْوَةَ ٱلْعُيُـونِ، وَتَعَظُّـمَ ٱلْمَعِيشَـةِ، لَيْـسَ مِـنَ ٱلْآبِ بَـلْ مِـنَ ٱلْعَالَـمِ». (١ يوحنـا ٢: ١٦)

«تَعَظُّمَ ٱلْمَعِيشَةِ»: هو العيش كما لو أن الله غير مهم، العيش كما لو أن الله ليس له متطلبات أو سلطان. هل تتذكر الجملة التي لخصنا بها جوهر الكبرياء؟ "الكبرياء تسعى للاستقلالية عن الله". إنَّها ليست إنكارًا لسيادة الله في الكون، لكنها قرار بأننا نستطيع أن نعيش من دونه.

التجاوب مع تعظم المعيشة

وبينما نختم هذا الفصل، ربما تكون قد أُخذتَ أنتَ أيضًا ببراثن هذا الخداع الماكر لتعظم المعيشة. فإذا شعرت بأي توبيخ في تلك الدائرة الآن، فلتتجاوب بتقديم الصلاة التالية لله:

يا إلهي، أنا ألاحظ أنني مِلتُ تجاه الاستقلالية المشروحة في هذا الفصل. وقبلما أتقدم خطوة أخرى، أريد أن أحسم هذا الأمر معك.

أتوب أمامك، طالبًا غفرانك عن وجود «تَعَظُّمَ ٱلْمَعِيشَةِ» هذا فيَّ، هذا الميل للسعي للاستقلالية عنك وعن خططك لحياتي. أريد أن أتراجع عن ذلك الآن.

أيها الرب، أعلن أمامك: بنعمتك، سأعيش من الآن فصاعدًا عن طواعية معتمدًا عليك. آمين.

الفصل السابع

النموذج الأمثل للتواضع

في دراستنا المتعمقة للقانون الكوني الأبدي -المتعلق بالكبرياء مقابل التواضع- تطرقنا إلى الجانب السلبي لهذا المبدأ. أما في هذا الفصل، فسوف نُركز على الجانب الإيجابي، والمُعلن في هذه الكلمات «وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ».

قدم يسوع نفسه أعظم وأكمل دليل على هذا الجانب الإيجابي. في الواقع، إنَّ التناقض بين الشيطان (لوسيفر) والمسيح دقيق وكامل. انظر إلى الأمر بهذه الطريقة: لقد سعى لوسيفر (الشيطان) إلى تمجيد نفسه؛ فطُرِحَ للأسفل. أمَّا يسوع، ابن الله المتجسد، فتواضع ورفعه الله.

صورة مذهله للتواضع

شرح لنا الرسول بولس في رسالته إلى فيلبي (٢: ٥-١١) صورة فائقة الجمال عن تنازل يسوع ووضعه نفسه. أرى أنه من المهم أنَّ بولس كتب الرسالة إلى أهل فيلبي في زنزانة السجن؛ فلقد كان يطبق الدروس التي تعلمها في حياته الخاصة، ورأى أن النموذج

الكامل لتلك الدروس كان بالفعل في حياة يسوع. في هذا المقطع، شرح بولس حقيقتين: وضع يسوع لذاته، وتمجيد الله الآب له؛ كنتيجة لذلك.

في شرح وضع يسوع لذاته في الأعداد (٥-٨)، نستطيع أن نميز سبع خطوات متتالية اتخذها يسوع نزولًا للأسفل، من مكان مساواته لله إلى مكان الموت كمجرم على الصليب! وفي الكتاب المقدس، رقم سبعة يمثل كل ما هو كامل وتام. إذًا، في تلك الخطوات السبعة للتنازل، نرى التواضع الكامل لربنا يسوع.

«فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هَذَا ٱلْفِكْرُ ٱلَّذِي فِي ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا: ٱلَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ ٱللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا لِلهِ. لَكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ ٱلنَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي ٱلْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ، وَأَطَاعَ حَتَّى ٱلْمَوْتَ، مَوْتَ ٱلصَّلِيبِ».

تشير الكلمات الأولى: «فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هَذَا ٱلْفِكْرُ»، إلى أنَّ بداية كل شيء بالفكر، وليس بالفعل. وقد كان توجه فكر الكبرياء لدى لوسيفر، هو ما حثه لفعل التمرد. بينما كان فكر يسوع عن الاتضاع هو الذي قاده لمسار النزول المستمر والتواضع العجيب. دعونا ننظر باختصار لخطوات التنازل السبعة تلك.

سبع خطوات للاتضاع والتنازل

الخطـوة الأولى: يسـوع «أَخْـلَى نَفْسَـهُ» فـي إحـدى ترانيـم (Charles Wesley) كتـب أنَّ يسـوع «أخـلى نفسـه مـن كل شيء، عـدا الحـب» [٣] .. فلقـد وضـع جانبًـا كل صفاتـه الإلهيـة.

الخطـوة الثانيـة: اِتَّخـذ «صُـورَةَ عَبْـدٍ». وفي اللغـة اليونانيـة تـأتي كلمـة "عبـد" بمعناهـا الحـرفي. بطريقـة مـا، كان يُمكـن ليسـوع أن يصـير خادمًـا في مرتبـة الملائكـة؛ لأن الملائكـة جميعهـم هـم خـدام لله. ولكـن عوضًـا عـن ذلـك، اختـار يسـوع طواعيـة مكانـة أقـل: العبوديـة!

الخطـوة الثالثـة: «صَائِـرًا فِي شِـبْهِ ٱلنَّاسِ». وهـذا جعلـه يتنـازل أكثر: لقـد وضـع يسـوع نفسـه في ذات المكانـة مـع الجنـس الآدمي، نسـل آدم. ضـع في اعتبـارك أنـه كان مـن الممكـن أن يـأتي إلى الأرض في صـورة الكمـال البـشري بـكل مسـتوياته -الجسـدي وغـيره- كمـا كان آدم قبـل السـقوط. ولكـن عوضًـا عـن ذلـك، اختـار يسـوع أن يصـير إنسـانًا طبيعيًـا، كواحـد مـن نسـل آدم، لكـن بـلا خطيـة. (انظـر الرسـالة إلى العبرانيـين ٤: ١٥)

الخطـوة الرابعـة: «وُجِـدَ فِي ٱلْهَيْئَـةِ كَإِنْسَـانٍ». كان يسـوع بالجسـد مثـل

(٣) "وهل يمكن أن أربح" تشارلز وسلي

سائر الرجال في زمنه. وكان يختلط معهم في شوارع الناصرة، ولم يلحظ أحد فيه أي اختلاف جسدي. ولتأكيد هذه النقطة، دعونا نتذكر تلك الواقعة، عندما ميز بطرس حقيقة يسوع، بقوله: «أَنْتَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللهِ ٱلْحَيِّ» في ذلك الوقت، قال يسوع لبطرس: «إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لَكِنَّ أَبِي ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ» (انظر متى ١٦: ١٦-١٧). بكلمات أخرى، لم يكن من الممكن للعين الطبيعية بالجسد أن ترى حقيقة شخص يسوع؛ فلقد كان بصفاته الجسدية، مثل بقية الرجال في قريته ومنطقته. فقط هو الروح القدس الذي يُعلن "ألوهية" يسوع من خلف حجاب جسده؛ لأنه «وُجِدَ فِي ٱلْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ».

الخطوة الخامسة: «وَضَعَ نَفْسَهُ»؛ ليكون مجرد إنسان! هل تفكرت يومًا في هذا الأمر؟ لم يأتِ يسوع ملكًا، أو قائدًا عسكريًا، أو حتى كاهنًا. صحيح أنه جاء من بيت داود، ولكن كان هذا البيت -وقتئذ- في تدهور ومذلة، وقد فقد مكانة وكرامة المجد الملوكي.

الخطوة السادسة: كإنسان، تحمَّل مصير الإنسان الحتمي: «ٱلْمَوْتَ». لقد تحمل الأمر حتى النهاية.

الخطوة السابعة، الخطوة العظمى: مات على «ٱلصَّلِيبِ». لم يمت على فراش المرض وحوله أقاربه، ولم يمت في سلام وسط أسرته.

على العكس، مات موت الخطاة في حزن وعار، عريانًا ومُشهرًا به حسب القانون الروماني. هذا هو التواضع الكامل ليسوع.

سبع خطوات لرفعة يسوع للمجد

بعد أن استعرضنا الخطوات السبعة، التي اتخذها يسوع نزولًا لأسفل، دعونا الآن نولي بعض الانتباه لنتائج وَضْع يسوع لذاته. ويمكننا أن نرى لمحة من هذه النتائج في مستهل كلمات رسالة فيلبي (٢: ٩): "لهذا السبب أيضًا" وذُكرت في عدة ترجمات منها ترجمة الملك جيمس الحديثة: "لذلك".

لم يتظاهر المسيح بتخليه عن مكانته، كونه الله؛ لكنه تخلى عنها بالفعل. وأخذ صورة إنسان وعاش متواضعًا ولهذا رَفَّعَهُ الله وأعطاه مجدًا. أعلن بولس صِدق هذا في رسالة فيلبي (٢: ٩-١١): «لِذَلِكَ رَفَّعَهُ ٱللهُ أَيْضًا، وَأَعْطَاهُ ٱسْمًا فَوْقَ كُلِّ ٱسْمٍ، لِكَيْ تَجْثُوَ بِٱسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي ٱلسَّمَاءِ، وَمَنْ عَلَى ٱلْأَرْضِ، وَمَنْ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ، وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ، لِمَجْدِ ٱللهِ ٱلْآبِ».

لاحظ الآن، فيسوع أخذ سبع خطوات للأعلى:

الخطوة الأولى: "رَفَّعَهُ ٱللهُ".

الخطوة الثانية: أعطاه الله "ٱسْمًا فَوْقَ كُلِّ ٱسْمٍ".

الخطوة الثالثة: صدر القرار أن «تَجْثُوَ بِٱسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ». وهنا نجد ثلاثة مجالات تم تحديدها، تشمل كل مجالات الخليقة، حيث تجثو كل ركبة. وسأذكر تلك المجالات في النقاط التالية من الخطوة الرابعة إلى السادسة.

الخطوة الرابعة: سيجثو له «مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ».

الخطوة الخامسة: سيجثو له «مَنْ عَلَى ٱلْأَرْضِ».

الخطوة السادسة: سيجثو له «مَنْ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ».

الخطوة السابعة - الخطوة الأخيرة: «وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ».

مع الأخذ في الحسبان كلمة «لِذَلِكَ» بمدلولها، فما نتيجة ما سبقها؟ نال يسوع (الإنسان) هذه الرفعة بتواضعه. كان هو المثال الأكمل لمبدأ: «وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِع»!

تتميم التواضع

نستكمل الآن الأعداد التالية من رسالة فيلبي (٢)، وأريدك أيضًا أن تلاحظ الكلمة الأولى من عدد (١٢): «إِذًا...». لقد رأينا تتميم مبدأ التواضع في حياة يسوع، والآن سنرى كيف نطبق هذا على حياتنا الخاصة:

«إِذًا يَا أَحِبَّائِي، كَمَا أَطَعْتُمْ كُلَّ حِينٍ، لَيْسَ كَمَا فِي حُضُورِي فَقَطْ، بَلِ ٱلْآنَ بِٱلْأَوْلَى جِدًّا فِي غِيَابِي، تَمِّمُوا خَلَاصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، لِأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ ٱلْمَسَرَّةِ. اِفْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ بِلَا دَمْدَمَةٍ وَلَا مُجَادَلَةٍ، لِكَيْ تَكُونُوا بِلَا لَوْمٍ، وَبُسَطَاءَ، أَوْلَادًا لِلهِ بِلَا عَيْبٍ فِي وَسَطِ جِيلٍ مُعَوَّجٍ وَمُلْتَوٍ، تُضِيئُونَ بَيْنَهُمْ كَأَنْوَارٍ فِي ٱلْعَالَمِ».

مجددًا، بعد الإشارة إلى تواضع يسوع، وإلى تمجيده الناتج عن ذلك، نرى كلمة "إذًا". ماذا تعني كلمة "إذًا"؟ إنها كلمة تشير إلى النتائج، وإلى تطبيق هذا المبدأ في حياتنا؛ فكما تواضع يسوع، هكذا ينبغي لنا أيضًا. فإن كنا سنحيا الحياة المسيحية بنجاح ونتَّبع مثاله؛ يجب علينا نحن أيضًا أن نتضع. إنَّ التواضع هو الشرط الأساسي لنتقدم في الحياة المسيحية، كما يصورها العهد الجديد. فيجب أن يعمل فينا أيضًا نفس المبدأ الذي عمل في يسوع.

في المقطع السابق من كلمة الله، يوضح بولس الرسول ثلاث نتائج لإخضاع ذواتنا. فلنستعرض كل منها بشيء من التفصيل.

نطيع اللّه

أول نتيجة هي الطاعة، نطيع الله. يقول بولس: «كَمَا أَطَعْتُمْ كُلَّ حِينٍ، لَيْسَ كَمَا فِي حُضُورِي فَقَطْ، بَلِ الآن بالأولى جِدًّا فِي غِيَابِي». بمعنى:

لا تكن طاعتكم فقط في حضوري، ولكن بالأولى أكثر في غيابي. الشخص المتكبر لا يستطيع أن يكون طائعًا؛ فلا يمكن للكبرياء والتمرد أن يتواجدا مع الطاعة. ونحن لا نستطيع أن نطيع الله (أو أولئك الذين أقامهم علينا) مادام في قلوبنا كبرياء وتمرد. علينا أن نتواضع لكي نطيع.

نسمح للّه بالعمل فينا

النتيجة الثانية للتواضع هي أن يتمكن الله من العمل فينا. قال بولس: «لِأَنَّ الله هُوَ العامل فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ المسرة» (فيلبي ٢: ١٣). الكبرياء هي العائق أمام عمل الله فينا. يتمم الله مشيئته في أولئك الذين يتضعون فقط. فإن ظللنا متكبرين، ومتعجرفين، ومعتدِّين بذواتنا؛ ساعين للحفاظ على استقلالنا عن الله، حينها لا توجد طريقة يمكن أن يعمل بها الله فينا.

نضئ كنور للّه في العالم

النتيجة الثالثة لتواضعنا، هي حقًا في غاية الجمال: «تُضِيئُونَ بَيْنَهُمْ كَأَنْوَارٍ فِي العالم» (فيلبي ٢: ١٥). الاتضاع يجعل من شعب الله أشخاصًا مختلفين تمامًا عن باقي الناس في هذا العالم. فيتميز شعب الله ليس بإنجازاتهم العالية أو قدراتهم العقلية، لكن

باتضاعهم. فالاتضاع هو سمة قلما يراها العالم في يومنا هذا. فيتميز شعب الله -بلا أدنى شك- عندما يحياها.

العالم يشتد ظلامًا من حولنا. و"أنوار" كثيرة كنا نحسبها آمنة، تُفقد! لكن الحقيقة الجميلة في سماء الليل: كلما كان الليل أكثر قتامة، كانت النجوم أكثر بريقًا. وهذا ما يبتغيه الله أن يحدث معنا. ومفتاح ذلك هو إخضاع الذات؛ حتى نضئ مثل الأنوار في العالم.

أعظم إظهار للتواضع

أرجو أن تكون مستمتعًا ومستفيدًا من دراستنا "الكبرياء مقابل الاتضاع"، ومن تطبيقات هذا القانون الكوني الذي ندرسه. كما أرجو أن يتحدث الرب إليك أيضًا، ويشجعك في مسيرك معه، من خلال ما تطرقنا إليه في هذه الدراسة.

وكما رأينا، إنَّ يسوع هو أعظم وأكمل إظهار للتواضع، الذي نسعى إليه جميعًا. لقد أعطانا مثالًا لنتبعه. يجب أن يكون التواضع جزءًا رئيسيًا من حياتنا، إذا أردنا أن نحيا حياة مسيحية ناجحة. والنتيجة ستكون كما وعد الله: «تُضِيئُونَ بَيْنَهُمْ كَأَنْوَارٍ فِي العالم». وكوننا مؤمنين، فإن السير في مثال خُطا يسوع -التي وضعها لنا- هي أكثر الطرق فاعلية لكي نجذب جيراننا،

وزمـلاء العمـل، والأصدقـاء، وأعضـاء الأسرة - نحـو الله.

تذكـر: مـع أنَّ العالـم يـزداد ظلمـة باسـتمرار، لكـن الظلمـة هي المجـال ليشـع النـور بصـورة أكـثر إشراقًـا. فـإن كنـت ترغـب في أن يسـتخدمك الله خـلال هـذه الأيـام المظلمـة، فالمفتـاح هـو التواضـع.

في الفصـل التـالي، سـندرس طرقًـا تجعلنـا نأخـذ مواقـف محـددة؛ حـتى نجعـل التواضـع حقيقـة في حياتنـا.

الجزء الثالث

التواضع والتمجيد

الفصل الثامن

نتضع لكي نأتي إلى اللّه

في الفصل السابق، أشرتُ إلى المثال الكامل للتواضع، الذي قدمه لنا يسوع، متخليًا عن مجد السماء ومكانته الإلهية. اتخذ يسوع سبع خطوات للاتضاع في تنازله، والتي تم وصفها في (فيلبي ٢: ٥-٨):

١) أخلى نفسه.

٢) أخذ صورة عبد.

٣) جاء في شبه إنسان مثلنا: إنسان بشري طبيعي.

٤) اتخذ الصورة الجسدية للرجال في عصره.

٥) اتضع ليكون مجرد إنسان، دون مركز أو مكانة خاصة.

٦) احتمل الموت: المصير العام لكل البشر.

٧) ومات على الصليب، موت مُجرمٍ، في حزن وعار!

ولأن يسوع اتضع اتضاعًا كاملًا بهذه الخطوات السبعة، رَفَّعَهُ الله بدوره لأعلى مكانة في الكون. وأعطاه الاسم الذي يفوق كل اسم، وقرر أنه باسمه ستجثو كل ركبة، ويعترف كل لسان أنه رب.

ثلاث أوجه للتطبيق:

مع ذلك الاستعلان الكامل -لقانون التواضع- الذي ظهر في يسوع، فإن هذا القانون يعمل بكل دقة وعدل، لك ولي أيضًا. نحتاج أن نعي أنَّ هناك ثلاث مراحل يجب أن نُطبق فيها قانون التواضع هذا في حياتنا.

المرحلة الأولى: عندما نأتي إلى الله في البداية؛ فالتواضع هو الذي يقودنا إلى الله في هذه الحالة.

المرحلة الثانية: بعد أن أتينا إلى الله، نحتاج التواضع ونحن نتقدم في مسيرنا في الحياة المسيحية؛ فهو الذي يساعدنا أن نحقق هذا التقدم المبارك.

المرحلة الثالثة: تأتي عندما نتفاعل مع الآخرين ومع إخوتنا المؤمنين، ففيها يقودنا التواضع إلى التواصل الصحيح مع من حولنا.

سنخصص فصلًا كاملًا لكل مرحلة من هذه المراحل،

لتطبيق التواضع في حياتنا اليومية. وسنبدأ في هذا الفصل بدراسة التطبيق العملي الأول لمبدأ التواضع، حين نأتي إلى الله في البداية.

التواضع في المجيء إلى الله

"تَصِيرُوا مِثْلَ الْأَوْلَادِ"

كيف نتواضع لكي نأتي إلى الله في البداية؟ في (متى ١٨) أعطى لنا يسوع نموذج الولد، مثالًا عن كيفية المجيء إلى الله:

«فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ تَقَدَّمَ ٱلتَّلَامِيذُ إِلَى يَسُوعَ قَائِلِينَ: فَمَنْ هُوَ أَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَاوَاتِ؟ فَدَعَا يَسُوعُ إِلَيْهِ وَلَدًا وَأَقَامَهُ فِي وَسْطِهِمْ وَقَالَ: ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ ٱلْأَوْلَادِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ. فَمَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مِثْلَ هَذَا ٱلْوَلَدِ فَهُوَ ٱلْأَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَاوَاتِ».

عندما قال يسوع هذه الكلمات، افترض بعض التلاميذ أنهم كانوا بالفعل في ملكوت السماوات. ولكن، كان يسوع يقول: أنتم حتى لم تدخلوها! والسبب أنكم لم تستوفوا الشرط. وماذا كان الشرط؟ في إجابته، استخدم يسوع عبارة «وَضَعَ نَفْسَهُ». فقد قال «فَمَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مِثْلَ هَذَا ٱلْوَلَدِ فَهُوَ ٱلْأَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَاوَاتِ».

وبكل تأكيد، لم يتوقع الناس -في وقت يسوع- سماع

مثل هذا النوع من الإجابة. على العكس، ربما توقعوا منه أن يشير لأحد الرؤساء، أو أحد الحاخامات المتعلمين، أو أحد المعلمين، أو شخص ثري كمثال على العظمة. ولكن على النقيض تمامًا، اختار يسوع المثال الأكثر وضوحًا للضعف والتواضع- ولد- وقال: إن كنتم حقا ترغبون في الدخول لملكوت السماء؛ فعليكم أن تتغيروا وتصيروا مثل هذا الولد الصغير.

يعرف كل الآباء أنَّ أطفالهم الصغار غير كاملين. أحيانًا يفقد الأطفال أعصابهم، وفي كثير من الأحيان يصعب التعامل معهم. ولكن تظل هناك سمة للأطفال في أي مكان في العالم: إنَّ الأطفال قابلون للتعلم؛ فليس لديهم أحكام وتصورات سابقة، تحجب عقولهم عن الحقيقة. فهم يتلقون الحقيقة دون مقاومة، أو كفاح في محاولة إثبات أنهم على حق، أو في إظهار ذكاءهم. فلهذا، اختار يسوع الولد كمثال لكيفية المجيء إلى الله، والدخول إلى ملكوت السماوات.

بهذا يخبرنا يسوع عن أفضل صورة للتواضع: «مثل ولد صغير»! يجب علينا أن نأتي فقط مثل هذا الولد الصغير، الذي اختاره يسوع كأفضل مثال لنوعية التواضع التي ينتظرها هو من جهتنا.

"كَيْلَا يَفْتَخِرَ أَحَدٌ"

استكمالًا لدراستنا عن أهمية الاتضاع في مجيئنا إلى الله،

دعونا نقرأ ما قاله بولس في رسالة كورنثوس الأولى، الأصحاح الأول، عن الأشخاص الذين اختارهم الله. (في الحقيقة، هم مجموعة من الناس لا يُتوقع أبدًا اختيارهم!)

«فَٱنْظُرُوا دَعْوَتَكُمْ أَيُّهَا ٱلْإِخْوَةُ، أَنْ لَيْسَ كَثِيرُونَ حُكَمَاءَ حَسَبَ ٱلْجَسَدِ، لَيْسَ كَثِيرُونَ أَقْوِيَاءَ، لَيْسَ كَثِيرُونَ شُرَفَاءَ، بَلِ ٱخْتَارَ ٱللهُ جُهَّالَ ٱلْعَالَمِ لِيُخْزِيَ ٱلْحُكَمَاءَ. وَٱخْتَارَ ٱللهُ ضُعَفَاءَ ٱلْعَالَمِ لِيُخْزِيَ ٱلْأَقْوِيَاءَ. وَٱخْتَارَ ٱللهُ أَدْنِيَاءَ ٱلْعَالَمِ وَٱلْمُزْدَرَى وَغَيْرَ ٱلْمَوْجُودِ لِيُبْطِلَ ٱلْمَوْجُودَ، لِكَيْ لَا يَفْتَخِرَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ أَمَامَهُ. وَمِنْهُ أَنْتُمْ بِٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ، ٱلَّذِي صَارَ لَنَا حِكْمَةً مِنَ ٱللهِ وَبِرًّا وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً. حَتَّى كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: مَنِ ٱفْتَخَرَ فَلْيَفْتَخِرْ بِٱلرَّبِّ».
(١كورنثوس ١: ٢٦-٢٩)

حدد بولس ثلاث فئات من الأشخاص الذين يجدون صعوبة خاصة في الدخول إلى ملكوت الله: الحكماء، والأقوياء، والشرفاء (ذوي المكانة الاجتماعية). هل هناك أي خطأ في الحكمة أو القوة أو المكانة الاجتماعية؟ هل لدى الله أي شيء ضد هذه الصفات؟ بالتأكيد لا. المشكلة هي أنَّ تلك الصفات الثلاثة هي المصدر الرئيسي للكبرياء في الطبيعة البشرية. يتكبر الناس بسبب: حكمتهم وتعليمهم وذكائهم؛ أو قوتهم ونفوذهم؛ أو نسبهم الشريف ومكانتهم بالمجتمع. وهنا تَكْمن المشكلة: لا يستطيع المتكبر أن يدخل ملكوت الله.

ثقب إبرة

في (لوقا ١٨)، هناك حديث مثير للانتباه بين يسوع وأحد الرؤساء الأغنياء. فقد سأل هذا الرئيس يسوع -في عدد ١٨- سؤالًا جادًا جدًا: «أَيُّهَا ٱلْمُعَلِّمُ ٱلصَّالِحُ، مَاذَا أَعْمَلُ لِأَرِثَ ٱلْحَيَاةَ ٱلْأَبَدِيَّةَ؟». دعونا نرى كيف جاء رد يسوع عليه:

«أَنْتَ تَعْرِفُ ٱلْوَصَايَا: لَا تَزْنِ. لَا تَقْتُلْ. لَا تَسْرِقْ. لَا تَشْهَدْ بِٱلزُّورِ. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ. فَقَالَ: هَذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي. فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ ذَلِكَ قَالَ لَهُ: يُعْوِزُكَ أَيْضًا شَيْءٌ: بِعْ كُلَّ مَا لَكَ وَوَزِّعْ عَلَى ٱلْفُقَرَاءِ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي ٱلسَّمَاءِ، وَتَعَالَ ٱتْبَعْنِي. فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ حَزِنَ، لِأَنَّهُ كَانَ غَنِيًّا جِدًّا. فَلَمَّا رَآهُ يَسُوعُ قَدْ حَزِنَ، قَالَ: مَا أَعْسَرَ دُخُولَ ذَوِي ٱلْأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ ٱللهِ! لِأَنَّ دُخُولَ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ ٱللهِ».

في هذا المقطع، استخدم يسوع عبارة جديرة بالملاحظة، تتحدث عن جَمل يمر من خلال ثقب إبرة! هل وجدت هذا صعب الفهم؟ دعني أوضحه لك.

من واقع خبرتي بالعيش في أرض إسرائيل لسنوات عدة؛ اتسعت مداركي لأفهم تعليق يسوع لهذا الرئيس الشاب الغني. لقد سمعت من مصادر مباشرة عن مدخل في سور المدينة القديمة عند بوابة يافا، كان موجودًا حتى وقت قريب في بداية القرن العشرين.

في الأيام الأولى لبوابة يافا، كانت هناك بوابة حديدية ضخمة جدًا، وكانت تُغلق كل ليلة مع غروب الشمس، وتظل مغلقة حتى شروق شمس اليوم التالي. ولم يكن من الممكن بأي حال من الأحوال أن تُفتح تلك البوابة الضخمة أثناء ساعات الظلام. ومع ذلك، قد يحدث أحيانًا أن يصل مسافر على جَمل إلى البوابة بعد حلول الظلام، طالبًا الدخول إلى المدينة. فعندما يحدث هذا، كانت تُفتح له بوابة صغيرة، هي جزء من جسم البوابة الرئيسية الحديدية. وكان على الشخص لكي يدخل منها أن ينزل من على جمله، ويُنزِل من على ظهر الجمل كل شيء، كل الأمتعة التي يحملها، ثم ينزل الجمل على ركبتيه، وبصعوبة بالغة ينضغط ليمر من خلال تلك الفتحة الصغيرة في بوابة يافا، دون أي أمتعة. فكانوا يطلقون على هذه البوابة الصغيرة: "ثقب إبرة".

لذلك، ففي رد يسوع على هذا الشاب الغني، شرْحٌ لحالة الشخص الغني عندما يأتي إلى ملكوت الله. عليه أن يطرح جانبًا كل أمتعته: كبريائه، واستقلاليته. ثم ينحني على ركبتيه حتى يستطيع بالكاد أن يشق طريقه!

يسهل على رجل فقير -لا يحمل شيئًا في يديه سوى عصا- أن يعبر البوابة؛ فكل ما عليه فعله هو أن ينحني ويمر من خلالها، فيصبح داخل المدينة.

إنها ذات البوابة أمام الجميع، سواء غني أو فقير. ولكن عادة يكون من الصعب على الغني -أكثر من الفقير- أن يمر من خلال هذه البوابة.

طرح كل شيء جانبًا

دعونا ننظر إلى نموذج آخر، عن المجيء إلى الله بتواضع. هذا النموذج من العهد القديم لرجل يُدعى نُعْمان، حاول أن يأتي إلى الله حاملًا الكثير، لكن هذه الطريقة لم تنجح. نجد قصته في الأصحاح الخامس من سفر الملوك الثاني.

كان لنعمان مكانة اجتماعية بارزة؛ فقد كان ذا شأن عظيم: جندي شجاع، ورئيس جيش آرام. ولكن لديه مشكلة: كان أبرص. كم من أشخاص مثله! يبدو أنهم يملكون كل شيء، إلَّا أنَّ لديهم شيء ما يكدِّر حياتهم.

إحدى الجاريات لدى نعمان، كانت من بني إسرائيل وقد أُخذت في السبي، قالت له: «إن استطاع أن يجد سبيلًا ليصل إلى النبي إليشع في السامرة؛ فإنه سيشفيه من برصه».

أخذ نعمان الموافقة من ملك آرام، وذهب ومعه عشر وزنات من الفضة (٧٥٠ جنيه إسترليني)، وستة آلاف شاقل من الذهب (١٥٠ جنيه إسترليني)، وعشر حلل من الثياب. لاحظ،

جاء نعمان إلى الله ومعه الكثير! وعندما وصل هذا القائد العظيم إلى إسرائيل، قال النبي إليشع عنه للملك: "أرسله إليَّ، وهو سيشفى"، انظر (٢ملوك ٥: ٨).

وها هي بقية القصة:

«جَاءَ نُعْمَانُ بِخَيْلِهِ وَمَرْكَبَاتِهِ وَوَقَفَ عِنْدَ بَابِ بَيْتِ أَلِيشَعَ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَلِيشَعُ رَسُولًا يَقُولُ: ٱذْهَبْ وَٱغْتَسِلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي ٱلْأُرْدُنِّ، فَيَرْجِعَ لَحْمُكَ إِلَيْكَ وَتَطْهُرَ. فَغَضِبَ نُعْمَانُ وَمَضَى وَقَالَ: هُوَذَا قُلْتُ إِنَّهُ يَخْرُجُ إِلَيَّ، وَيَقِفُ وَيَدْعُو بِٱسْمِ ٱلرَّبِّ إِلَهِهِ، وَيُرَدِّدُ يَدَهُ فَوْقَ ٱلْمَوْضِعِ فَيُشْفِي ٱلْأَبْرَصَ. أَلَيْسَ أَبَانَةُ وَفَرْفَرُ نَهْرَا دِمَشْقَ أَحْسَنَ مِنْ جَمِيعِ مِيَاهِ إِسْرَائِيلَ؟ أَمَا كُنْتُ أَغْتَسِلُ بِهِمَا فَأَطْهُرَ؟ وَرَجَعَ وَمَضَى بِغَيْظٍ. فَتَقَدَّمَ عَبِيدُهُ وَكَلَّمُوهُ وَقَالُوا: يَا أَبَانَا، لَوْ قَالَ لَكَ ٱلنَّبِيُّ أَمْرًا عَظِيمًا، أَمَا كُنْتَ تَعْمَلُهُ؟ فَكَمْ بِٱلْحَرِيِّ إِذَا قَالَ لَكَ: ٱغْتَسِلْ وَٱطْهُرْ؟ فَنَزَلَ وَغَطَسَ فِي ٱلْأُرْدُنِّ سَبْعَ مَرَّاتٍ، حَسَبَ قَوْلِ رَجُلِ ٱللهِ، فَرَجَعَ لَحْمُهُ كَلَحْمِ صَبِيٍّ صَغِيرٍ وَطَهُرَ». (٢ ملوك ٥: ٩-١٤)

لقد جاء نعمان بطريقة درامية، متوقعًا الاهتمام بشخصه، مع استجابة مناسبة يقدمها النبي العظيم له. ولكن يا لها من إهانة؛ فلم يخرج إليشع إليه حتى إلى الباب! بل أرسل فقط رسوله ليُخبر نعمان بما يجب عليه فعله.

هل ترى هذا النموذج؟ وهل ترى أهميته؟ لكي يُشفى

نعمان كان عليه أن يتخلى عن كل شيء، وخاصة كبريائه. تمامًا مثل الجمل الذي ينضغط ليعبر من خلال تلك البوابة الضيقة. كان على نعمان أن يطرح مركزه، وغناه، ومنصبهِ، وهيبته، وحتى زيه العسكري! فقد كان عليه أن يخلع كل ثيابه ويكشف هذا الجلد المملوء بالبرص. وكان عليه أن يستحم في ذلك النهر الذي ظنه نهرًا قذرًا؛ لأنَّ نهر الأردن نهر طيني. وأستطيع أن أتفهم رد فعل نعمان، عندما قارن بين نهر الأردن وتلك الجداول الصافية في بلاده.

لكن، عندما أصبح نعمان على استعداد لأن يتضع؛ أطاع بالكامل وغطس في ذلك النهر سبع مرات، عندها استقبل المجازاة لهذا الاتضاع. يا لها من صورة بديعة لشخص حاول أن يأتي إلى الله بهيئة عظيمة، ولكنه تعلم أن يتضع ويستقبل ما وعد الله به.

عمل بسيط

ونحن ننهي هذا الفصل، دعني أسألك سؤالًا مباشرًا: هل هناك أمر ما يقف حائلًا في طريق مجيئك الكامل إلى الله؟

إن كان كذلك، أود -بشدة- أن أوصيك بالقيام بعمل بسيط للتوبة: احنِ ركبتيك أمام الرب، واتضع مثلما فعل نعمان. تخلَ

عـن كل شيء قـد يعيق علاقتك بالله. أشـجعك أن تأتي إليـه في اتضاع.

أكـثر الأخبـار إسـعادًا: أنـك حـين تـأتي إلى الـرب باتضـاع الأطفـال، سـتجده مشـتاقًا في انتظـار قبولـك إليـه؛ ليقبلـك. فهـل تأخـذ تلـك الخطـوة نحـوه الآن؟

دعونـا نسـتخدم الأفـكار الـواردة في الفقـرة السـابقة في صـلاة مـن القلـب.

يـا سـيدي، أنـا أعـترف أنـه لدي مشـكلة للكبريـاء في داخـلي، بطريقـة مماثلـة جـدًا لمـا فعلـه نعمـان؛ وأنـا أطرحهـا جانبًـا الآن.

أجثـو أمامـك، متضعًـا في محـضرك، متجـردًا مـن كل شيء يقـف حائـلًا بيـني وبينـك. آتي إليـك باتضـاع كامـل، ومُسـلِمًا نفـسي بالتمـام لـك. آمـين.

الفصل التاسع

نتضع لكي ننمو روحيًا

على مدار كل فصل في هذا الكتاب، كنا نقوم ببناء دراستنا على أساس القانون الكوني، الذي يعمل في كل المواقف، حينما يكون هناك صراع بين الكبرياء والتواضع. في الفصول القليلة السابقة، اكتشفنا حقيقة أنَّ طبيعة صراعنا مع الكبرياء هي الرغبة في تمجيد الذات والاستقلال عن الله. وندرك الآن أنَّ هذا التوجه سائد في عالم اليوم، ولا يزال يقود للتمرد والهلاك. والمضاد لهذا التوجه السام السائد، هو القانون الكوني الذي أعلنه يسوع في (متى ٢٣: ١٢): «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ».

ودرسنا أيضًا النتائج التابعة لتمجيد الذات وعواقبه الوخيمة (في حالة لوسيفر). ومن الناحية الأخرى، ما ينتج من التواضع، الذي رأينا مثاله الأعظم (يسوع) ورأينا نتائجه وثماره.

في الفصل السابق، رأينا بوضوح أنَّ التواضع هو مطلب أساسي لكل واحد منَّا في بداية مجيئه إلى الله؛ لكي ندخل -للمرة الأولى- في علاقة حية معه. وهذا يأتي بنا إلى الفصل الحالي، حيث سنرى

كيف أنَّ الاتضاع ضروري أيضًا لنتقدم نحو النضوج في حياتنا المسيحية. سيتناسب التقدم الروحي لكل واحد منَّا مع مستوى استمرارنا في إخضاع ذواتنا لله.

الطريق نحو القيادة

مطلب طموح

في البداية، أريد أن أركز على مسار القيادة في جسد المسيح، وسط شعب الله، تابعي يسوع. سنتأمل فيما قاله يسوع في حادثة وقعت قبل نهاية خدمته الأرضية. هذه الواقعة مُسجلة في إنجيل متى الأصحاح (٢٠)، حيث نرى أم اِبنَي زبدي (يعقوب ويوحنا) تأتي ليسوع بمطلب خاص نيابة عن اِبنيها. دعونا ننتبه لمطلب الأم، ولرد يسوع على طلبها أيضًا:

«حِينَئِذٍ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ أُمُّ ٱبْنَيْ زَبْدِي مَعَ ٱبْنَيْهَا، وَسَجَدَتْ وَطَلَبَتْ مِنْهُ شَيْئًا. فَقَالَ لَهَا: مَاذَا تُرِيدِينَ؟ قَالَتْ لَهُ: قُلْ أَنْ يَجْلِسَ ٱبْنَايَ هَذَانِ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَٱلْآخَرُ عَنِ ٱلْيَسَارِ فِي مَلَكُوتِكَ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ: لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مَا تَطْلُبَانِ». (متى ٢٠: ٢٠-٢٢)

لاحظ معي أنَّ يسوع توجه بالكلام للابنين «لَسْتُمَا...»، وليس للأم! لم يلتفِ يسوع بالمسئولية على الأم، التي بالفعل قدمت المطلب، بل على ابنيها. فلقد كانا -بطريقة ما- يختبئان خلف

عباءة والدتهما. ولكن يسوع أحضرهما للملأ كاشفًا دوافعهما الخاطئة.

«فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ: لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مَا تَطْلُبَانِ. أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا ٱلْكَأْسَ ٱلَّتِي سَوْفَ أَشْرَبُهَا أَنَا، وَأَنْ تَصْطَبِغَا بِٱلصِّبْغَةِ ٱلَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا؟ قَالَا لَهُ: نَسْتَطِيعُ. فَقَالَ لَهُمَا: أَمَّا كَأْسِي فَتَشْرَبَانِهَا، وَبِالصِّبْغَةِ ٱلَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا تَصْطَبِغَانِ. وَأَمَّا ٱلْجُلُوسُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَلَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ إِلَّا لِلَّذِينَ أُعِدَّ لَهُمْ مِنْ أَبِي. فَلَمَّا سَمِعَ ٱلْعَشَرَةُ ٱغْتَاظُوا مِنْ أَجْلِ ٱلْأَخَوَيْنِ». (متى ٢٠: ٢٢-٢٤)

لماذا اغتاظ بقية التلاميذ؟ السبب الوحيد الذي يجعلهم يغتاظون، أنهم كانوا -هم أنفسهم- يطمحون في أخذ موضع عن يمين ويسار يسوع. هناك العديد من الدوافع تكمن في هذه الحادثة البسيطة.

شرط الترقية

«دَعَاهُمْ يَسُوعُ وَقَالَ: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رُؤَسَاءَ ٱلْأُمَمِ يَسُودُونَهُمْ، وَٱلْعُظَمَاءَ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ. فَلَا يَكُونُ هَكَذَا فِيكُمْ. بَلْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ عَظِيمًا فَلْيَكُنْ لَكُمْ خَادِمًا، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ أَوَّلًا فَلْيَكُنْ لَكُمْ عَبْدًا...» (متى ٢٠: ٢٥-٢٧)

هل تجد أنَّ كلمة "عَبْدًا" قبيحة؟ إنها شرط مطلق: إن أردت

أن تكـون عظيمًـا؛ عليـك أن تصبـح خادمًـا. وإن أردت أن تكـون أولًا؛ عليـك أن تتنـازل أكـثر، عليـك أن تصـير عبـدًا.

«كَمَا أَنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ، وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ». (متى ٢٠: ٢٨)

نـرى مبـدأً واضحًـا جـدًا في الحادثـة السـابقة. إنـه أسـاس شرط الترقيـة في ملكـوت الله، وهـو جـزء مـن ذات المبـدأ الذي ندرسـه على مـدار هـذا الكتـاب: السـبيل للرفعـة هـو بالاتضـاع. فـإن أردت الارتفـاع أكـثر؛ عليـك أن تتضـع أكـثر. إن أردت أن تكـون رئيسًـا أو قائـدًا؛ كـن خادمًـا. وإن أردت أن تكـون زعيمًـا؛ كـن عبـدًا.

ومـرة أخـرى، أود أن أؤكـد أنَّ هـذا المبـدأ يـسري عملـه في كل الحيـاة، بـل وكل مجـال في الكـون؛ ليـس هنـاك اسـتثناءات لهـذا القانـون. ومثلمـا نقـول في العالـم الطبيـعي أنـه ليـس هنـاك اسـتثناءات لقانـون الجاذبيـة الأرضيـة، فهكـذا أيضًـا في العالـم الـروحي ليـس هنـاك اسـتثناءات لهـذا القانـون: «فَمَـنْ يَرْفَـعْ نَفْسَـهُ يَتَّضِـعْ، وَمَـنْ يَضَـعْ نَفْسَـهُ يَرْتَفِـعْ». ليـس هنـاك مسـار شرعي للـترقي في ملكـوت الله -لتصبـح قائـدًا حقيقيًـا- إلَّا مـن خـلال التواضـع فقـط.

دعـني أشـير إلى أننـا كثـيرًا مـا نتجاهـل هـذا القانـون في ممارسـة الترقيـة في الكنيسـة، فنختـار الأشـخاص لأنهـم خريجـو معاهـد

اللاهوت، أو لأجل تعليمهم العالي، أو لأجل موهبة الوعظ لديهم. وفي كثير من الأحيان، تقود مثل هذه الاختيارات إلى كوارث؛ لأننا تجاهلنا ذلك المبدأ الرئيسي العظيم: مَن لم يتعلم أن يتضع؛ ليس كُفئًا أن يكون قائدًا لشعب الله.

الاتضاع في حياة الرسول بولس

أود أن أعرض فيما يلي المبدأ ذاته، من واقع حياة الرسول بولس. دعونا نقرأ شهادة الرسول بولس عن نفسه واختباره، من رسالة كورنثوس الثانية ١٢. وقبل هذه الأعداد، تحدث بولس عن كثرة الإعلانات الفريدة، التي أُعلنت له من الرب، فيما يختص بالإنجيل والكنيسة. ثم شرح كيف تعامل الله معه بسبب هذه الإعلانات.

«وَلِئَلَّا أَرْتَفِعَ بِفَرْطِ ٱلْإِعْلَانَاتِ، أُعْطِيتُ شَوْكَةً فِي ٱلْجَسَدِ، مَلَاكَ ٱلشَّيْطَانِ لِيَلْطِمَنِي، لِئَلَّا أَرْتَفِعَ». (٢ كورنثوس ١٢: ٧)

دعوني أشير إلى أننا في الغالب نتوقع أنه باستقبالنا إعلانات بكثرة، فكل شيء سيسير بسهولة لنا، والحياة ستكون أسهل جدًا. في الحقيقة، غالبًا ما يكون العكس هو الصحيح. الشخص الذي لديه إعلان عظيم، هو الشخص الذي يعاني أكثر. يستطرد بولس:

«مِنْ جِهَةِ هَذَا تَضَرَّعْتُ إِلَى ٱلرَّبِّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَنْ يُفَارِقَنِي». (٢ كورنثوس ١٢: ٨)

علينا أن نتذكر هذه الحقيقة كلما صلينا: أنَّ «لا» هي استجابة تمامًا مثل «نعم». صلى بولس ثلاث مرات، وفي كل مرة حصل على نفس الإجابة: «لا». ونرى تفسير استجابة الرب، بالإضافة إلى رد بولس، في العددين التاليين:

«فَقَالَ لِي: تَكْفِيكَ نِعْمَتِي، لِأَنَّ قُوَّتِي فِي ٱلضَّعْفِ تُكْمَلُ. فَبِكُلِّ سُرُورٍ أَفْتَخِرُ بِٱلْحَرِيِّ فِي ضَعَفَاتِي، لِكَيْ تَحِلَّ عَلَيَّ قُوَّةُ ٱلْمَسِيحِ. لِذَلِكَ أُسَرُّ بِٱلضَّعَفَاتِ وَٱلشَّتَائِمِ وَٱلضَّرُورَاتِ وَٱلِٱضْطِهَادَاتِ وَٱلضِّيقَاتِ لِأَجْلِ ٱلْمَسِيحِ. لِأَنِّي حِينَمَا أَنَا ضَعِيفٌ فَحِينَئِذٍ أَنَا قَوِيٌّ». (٢ كورنثوس ١٢: ٩-١٠)

عندما كتب بولس: «لِذَلِكَ...»، كان إثباتًا عمليًا للمبدأ الذي نقوم بدراسته: «أَفْتَخِرُ بِٱلْحَرِيِّ فِي ضَعَفَاتِي، لِكَيْ تَحِلَّ عَلَيَّ قُوَّةُ ٱلْمَسِيحِ». أسألك: هل يمكنك أن تقول ما قاله بولس؟ في الواقع، أسأل نفسي: هل أستطيع أن أقول ذلك؟

كم من الأشخاص يمكنهم أن يقولوا: «أُسَرُّ بِٱلضَّعَفَاتِ وَٱلشَّتَائِمِ وَٱلضَّرُورَاتِ وَٱلِٱضْطِهَادَاتِ وَٱلضِّيقَاتِ»؟ هل تدرك أن سبب سرور بولس بهذه المحن، هو أنه تعلم نفس المبادئ التي نتعلمها هنا؟

كل ما يدفعني للاتضاع، وكل ما يجردني من بقايا الكبرياء أو الاعتماد على الذات؛ هو طريق الارتفاع. كلما قل ما لديَّ في نفسي؛ استطعت الحصول على المزيد من الله. كلما أفكر أقل في

ذاتي؛ أقدر أن أستقبل المزيد من الله. حينما أكون ضعيفًا، حينئذ سأكون قويًا. لماذا؟ لأن قوة الله تُكْمَل في ضعفنا.

مادام لدينا الكثير من ذواتنا، فنحن لسنا بحاجه للكثير من الله. ولكن إن تجردنا مما هو لنا، سنحتاج لكل ما جعله الله لنا، وسيكون متاحًا مجانًا.

الاتضاع في حياة يوحنا المعمدان

والآن أريد أن ننظر للمبدأ نفسه في حياة يوحنا المعمدان، ذلك الرجل الذي جاء مُعدًا للطريق أمام يسوع. يوحنا المعمدان هو الرجل الذي كانت له خدمة فريدة لإعداد طريق المسيح. في مرحلة معينة من خدمة يوحنا، قال له تابعوه: إنَّ يسوع الناصري يتلمذ ويعمِّد أكثر ممن يعمدهم هو نفسه. (انظر يوحنا ٣: ٢٣-٢٦)

أظن أنَّ الذين أخبروا يوحنا المعمدان بهذه الأخبار، توقعوا أنه سيتصرف بطريقة سلبية، وسيصاب بخيبة أمل. ربما ظنوا أنَّ كبريائه سينجرح، وأنَّ مشاعره ستتأذى. وربما افترضوا أنَّ يوحنا لا يريد أن يرى يسوع - قريبه الذي يصغره سنًا، والذي فتح هو له باب الخدمة - يتفوق عليه وينجح بهذه الطريقة. من الرائع أنَّ رد فعل يوحنا المعمدان لم يكن واحدة من هذه. بل على العكس تمامًا، جاء تعليقه هكذا:

«يَنْبَغِي أَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ وَأَنِّي أَنَا أَنْقُصُ». (يوحنا ٣: ٣٠)

يا له من سر في ذلك التصريح! أخي، هل تريد المزيد من يسوع؟ إذًا لا بد أن يكون هناك القليل منك أنت. هل تريد المزيد من قوة الله؟ إذًا عليك أن ترى المزيد من ضعفك. هل تريد مسحة الله؟ عليك أن تُجرد نفسك من كل ثقة في قدراتك الشخصية. وكلما نقُصت، سيكون يسوع أعظم فيكَ. فقوته ستكمل فيك وفيَّ، وفي وسط ضعفاتنا.

تثبيت عيوننا على يسوع

هذا المبدأ المذهل -فيما يخُص الاتضاع والقابلية للضعف- يذكرني باقتباس للمبشر الراحل (Dwight L. Moody):

«اعتدت أن أظن أنَّ هبات الله هي في أرفف، واحد "فوق" الآخر، والأكثر طولًا -بنمو شخصيته الروحية- سيكون من الأسهل له الوصول إليها. لكنني الآن وجدتُ أنَّ هبات الله في أرفف، واحد "تحت" الآخر. فلم يصبح التساؤل مَن ينمو طولًا؟ ولكن مَن يتنازل أكثر؟ علينا أن نتضع أكثر فأكثر؛ للحصول على أفضل هباته». [٤]

في الصراع بين الكبرياء والتواضع في حياتنا، يكمن السر

(٤) يُنسب هذا الاقتباس إلى "إف بي ماير"، الذي تأثرت حياته وخدمته التبشيرية بشدة من قبل "دي إل مودي".

في أن نُثبِّت عيوننا على يسوع وحده. يجب أن نتذكر أنه هو "المثال"، هو الشخص الذي تحقق فيه المبدأ تحققًا مثاليًا. تقول رسالة العبرانيين (١٢: ٢):

«نَاظِرِينَ إِلَى رَئِيسِ ٱلْإِيمَانِ وَمُكَمِّلِهِ يَسُوعَ، ٱلَّذِي مِنْ أَجْلِ ٱلسُّرُورِ ٱلْمَوْضُوعِ أَمَامَهُ، ٱحْتَمَلَ ٱلصَّلِيبَ مُسْتَهِينًا بِٱلْخِزْيِ، فَجَلَسَ فِي يَمِينِ عَرْشِ ٱللهِ».

لنتذكر أنَّ يسوع ليس فقط هو المدخل والباب لبداية إيماننا، بل هو -أيضًا- الشخص الذي نُرى من خلاله في مسيرتنا. لماذا نُثبِّت عيوننا عليه؟ لأنه هو النموذج والمثال. أرانا يسوع المبدأ: السبيل للارتفاع هو بالتواضع. وكما حدث تمامًا ليسوع، كذلك يكون لنا: الطريق للعرش هو من خلال الصليب.

مهمتنا أن نقبل موت كل تكبر فينا، وكل ثقة بالذات، وكل غرور جسدي، وكل تطلعاتنا لأن نكون ذوي شأن. وكلما طرحنا كل تمحور حول الذات ووضعناها على الصليب؛ سنجد الطريق مفتوحًا لنا نحو العرش. لذا، فلنحيا: «نَاظِرِينَ إِلَى رَئِيسِ ٱلْإِيمَانِ وَمُكَمِّلِهِ يَسُوعَ».

الفصل العاشر

التواضع تجاه الآخرين

نصل إلى الفصل الأخير من دراستنا لفاعلية القانون الكوني الأبدي، الذي يقول: «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ». في آخر فصلين، قمنا بدراسة مجالات عمل هذا المبدأ في حياتنا الشخصية مع الله. الاتضاع أمر حتمي، ليس فقط للمجيء إلى الله وبداية العلاقة معه، ولكنه لأجل كل نضوج روحي في مسيرة حياتنا المسيحية أيضًا.

يسوع هو مثالنا لهذا النمو والتقدم. يقول الكتاب المقدس باستمرار: "تواضعوا..". بكلمات أخرى، هو أمر يجب علينا أن نقوم به. وكما رأينا، يبدأ الاتضاع في الإرادة ويُترجم في أفعال تناسبه.

دعونا الآن نأخذ هذا المبدأ في خطوة أعمق، ونكتشف كيف يُطبق في علاقاتنا تجاه الآخرين. كما ترى، غالبًا ما يتم انكشاف موقفنا الحقيقي تجاه الله، من خلال موقفنا تجاه الآخرين. وهذا هو الحال تحديدًا في موضوع التواضع؛ فيجب أن يظهر في علاقتنا مع الآخرين، وليس نحو الله فقط.

عادة ما نميل نحو خداع أنفسنا في أمور مثل هذه. فندَّعي أنَّ لدينا اتجاهًا صحيحًا نحو الله، ولكن في معاملاتنا مع رفقائنا، فإننا نظهر موقفًا مختلفًا تمامًا وغير صحيح. وحقيقة الأمر أنه إذا كان لدينا اتجاه سليم نحو الله؛ فسوف ينعكس في اتجاهاتنا ومعاملاتنا مع رفقائنا. فإن ظهر موقف خاطئ تجاه الآخرين في حياتنا، يمكن أن يكون هذا مؤشرًا أنَّ هناك جانب من اتجاهاتنا القلبية "نحو الله" غير سليمة. انظر -على سبيل المثال- رسالة يوحنا الأولى (٤: ٢٠).

ثلاث مقاطع كتابية مضيئة

إنَّ التواضع تجاه الآخرين أمر واضح في أماكن مختلفة من العهد الجديد، فدعونا ننظر إلى ثلاث أمثلة منها. نبدأ مع (فيلبي ٢: ٣): «لَا شَيْئًا بِتَحَزُّبٍ أَوْ بِعُجْبٍ، بَلْ بِتَوَاضُعٍ، حَاسِبِينَ بَعْضُكُمُ البعض أَفْضَلَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ». لاحظ أن التواضع يظهر جليًا حين نحسب الآخرين أفضل من أنفسنا. فهو عكس الطموح الأناني "تَحَزُّب"، والغرور الباطل "عُجْب".

ثم نقرأ عبارة قصيرة، ولكنها في غاية الأهمية في رسالة أفسس (٥: ٢١): «خَاضِعِينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي خَوْفِ الله». والمعنى الضمني واضح جدًا: إن كنا نخاف ونهاب المسيح حقًا، فهذا سيظهر بوضوح في اتجاهاتنا نحو بعضنا بعضًا؛ فلن نخضع فقط

للمسيح، ولكن سنخضع أيضًا بعضنا لبعض. إن كنا ندَّعي أننا نخضع للمسيح، ولكننا لا نخضع بعضنا لبعض، فإن ادعائنا بخضوعنا للمسيح باطل.

المثال الكتابي الثالث في رسالة بطرس الأولى (٥:٥): «وَتَسَرْبَلُوا بِالتَّوَاضُعِ، لِأَنَّ: اللهَ يُقَاوِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا الْمُتَوَاضِعُونَ فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً». وأود أن أقتبس من ترجمة (J. B. Phillips) للعدد نفسه: "حقًا عليكم جميعًا أن تخضعوا بعضكم للأخر، وتلبسوا "مَريلة" الاتضاع في خدمة بعضكم البعض". في اليونانية، تترجم الكلمة: "تَسَرْبَلُوا" أو "البسوا المَريلة"، و"المَريلة" هي نوع محدد كان يرتديها العبيد فقط. بكلمات أخرى، كان بطرس يقول «البسوا الاتجاه القلبي للعبد تجاه الآخرين». وهذا هو التطبيق الحقيقي للتواضع.

دعونا الآن ننظر التطبيق العملي لهذا المبدأ في حياة شخصيتين من العهد القديم. الأول هو أبرام أو "إبراهيم"، والثاني يعقوب.

اتضاع أبرام المذهل

سنبدأ بمثل من حياة إبراهيم، في علاقته ومعاملاته مع ابن أخيه لوط. القصة في سفر التكوين (١٣: ٥-١٧)، سيكون من المفيد أن تقرأها كاملة:

«وَلُوطٌ السَّائِرُ مَعَ أَبْرَامَ، كَانَ لَهُ أيضًا غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَخِيَامٌ. وَلَمْ تَحْتَمِلْهُمَا

ٱلْأَرْضُ أَنْ يَسْكُنَا مَعًا، إِذْ كَانَتْ أَمْلَاكُهُمَا كَثِيرَةً، فَلَمْ يَقْدِرَا أَنْ يَسْكُنَا مَعًا. فَحَدَثَتْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنَ رُعَاةِ مَوَاشِي أَبْرَامَ وَرُعَاةِ مَوَاشِي لُوطٍ. وَكَانَ ٱلْكَنْعَانِيُّونَ وَٱلْفَرِزِّيُّونَ حِينَئِذٍ سَاكِنِينَ فِي ٱلْأَرْضِ. فَقَالَ أَبْرَامُ لِلُوطٍ: لَا تَكُنْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ، لِأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ». (تكوين ١٣: ٥-٨)

هناك مغزى كبير في عبارة «نَحْنُ أَخَوَانِ». يشير الكتاب المقدس إلى وجود أناس آخرين يعيشون في تلك المساحة من الأرض (الكنعانيون والفرزيون)، وهم كانوا بمثابة أعداء محتملين لكل من أبرام ولوط. لذا، ذَكَّر إبراهيم ابن أخيه بأنهما أخوان، ولا يمكنهما أن يتخاصما. لماذا كان عليهما أن يتوافقا؟ لأن لديهما أعداء قد يستغلوا الانقسام الحادث بينهما. (وكم هذا صحيح لشعب الله في عالمنا اليوم!).

دعونا نُكمل القصة، ونرى كيف تصرف أبرام مع لوط:

«أَلَيْسَتْ كُلُّ ٱلْأَرْضِ أَمَامَكَ؟ ٱعْتَزِلْ عَنِّي. إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالًا فَأَنَا يَمِينًا، وَإِنْ يَمِينًا فَأَنَا شِمَالًا». فَرَفَعَ لُوطٌ عَيْنَيْهِ وَرَأَى كُلَّ دَائِرَةِ ٱلْأُرْدُنِّ أَنَّ جَمِيعَهَا سَقْيٌ، قَبْلَمَا أَخْرَبَ ٱلرَّبُّ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، كَجَنَّةِ ٱلرَّبِّ، كَأَرْضِ مِصْرَ. حِينَمَا تَجِيءُ إِلَى صُوغَرَ. فَٱخْتَارَ لُوطٌ لِنَفْسِهِ كُلَّ دَائِرَةِ ٱلْأُرْدُنِّ، وَٱرْتَحَلَ لُوطٌ شَرْقًا. فَٱعْتَزَلَ ٱلْوَاحِدُ عَنِ ٱلْآخَرِ. أَبْرَامُ سَكَنَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَلُوطٌ سَكَنَ فِي مُدُنِ ٱلدَّائِرَةِ، وَنَقَلَ خِيَامَهُ إِلَى سَدُومَ. وَكَانَ أَهْلُ سَدُومَ أَشْرَارًا وَخُطَاةً لَدَى ٱلرَّبِّ جِدًّا». (تكوين ١٣: ٩- ١٣)

أبرام يعطي للوط أسبقية الاختيار

في المقطع السابق، نرى اتضاع أبرام المذهل (سأشير قريبًا إلى بعض الآثار العميقة لهذا التواضع)، فهو الشخص الأكبر، والرجل الذي اختاره الله، وصاحب الدعوة الخاصة، وله الميراث. كان لوط (ابن أخيه) سائرًا معه طوال الطريق في قافلته. ومع ذلك، عندما حان الوقت لهما أن ينفصلا، لم يتخذ أبرام الموقف المتعجرف، أو يصر على إتمام الأمر بما يليق بمكانته، فيقول: «أنا الأكبر سنًا ومقامًا هنا؛ إذًا لي الحق أن أختار أولًا. وأنا أريد كذا، وكذا». فعل أبرام العكس تمامًا، وأخذ خطوة أدهشتني حقًا: اعطى للوط الحرية في الاختيار أولًا، قائلًا له: «مهما اخترت فليكن لك؛ سآخذ ما تبقى بعدك»! ألم يكن هذا تواضعًا؟

مكافأة التواضع

في ختام هذا المقطع نرى مكافأة التواضع:

«وَقَالَ ٱلرَّبُّ لِأَبْرَامَ، بَعْدَ ٱعْتِزَالِ لُوطٍ عَنْهُ: ٱرْفَعْ عَيْنَيْكَ وَٱنْظُرْ مِنَ ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي أَنْتَ فِيهِ شِمَالًا وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا، لِأَنَّ جَمِيعَ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى ٱلْأَبَدِ. وَأَجْعَلُ نَسْلَكَ كَتُرَابِ ٱلْأَرْضِ، حَتَّى إِذَا ٱسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّ تُرَابَ ٱلْأَرْضِ فَنَسْلُكَ أيضًا يُعَدُّ. قُمِ ٱمْشِ فِي

ٱلْأَرْضِ طُولَهَا وَعَرْضَهَا، لِأَنِّي لَكَ أُعْطِيهَا. فَنَقَلَ أَبْرَامُ خِيَامَهُ وَأَتَى وَأَقَامَ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا ٱلَّتِي فِي حَبْرُونَ، وَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ». (تكوين ١٣: ١٤-١٧)

لاحظ أنَّ إبراهيم لم يرَ ميراثه إلا بعد عمل التواضع. حتى ذلك الوقت، كان بالفعل واقفًا فيه، لكن الله لم يكن قد أعلنه له بعد. فقد اختار الله أن يُعلنه لإبراهيم بعد أن اتضع أمام ابن أخيه الصغير لوط.

يا لها من صورة لمكافأة التواضع! هل ترى، الله يراقب تصرفاتنا، يرى دوافعنا، وهو دائمًا يعمل على أن ينجح هذا المبدأ: الذي يضع نفسه سيُرفع.

درس يعقوب للاتضاع

المثل الثاني للاتضاع مأخوذ من حياة يعقوب. وأريد أن أوضح أنَّ يعقوب لم يستطع أن يعيد ميراثه حتى وضع نفسه! ليس فقط أمام الرب، لكن أمام أخيه (عيسو) أيضًا.

في البداية، اغتصب يعقوب حق البكورية من عيسو، بحيلة حقيرة إلى حد ما. ثم، بعمدٍ خدع أباه ليحصل على بركته، وهذه الحيلة (واقعيًا) لم تأخذه لمراده. وكنتيجة لهذين الفعلين المخادعين والقاسيين؛ اضطر يعقوب إلى الهروب من "ميراثه" كأنه طريد، وليس لديه سوى عصا في يده. وقضى العشرين سنة التالية في

المنفى، يعمل كخادم عند خاله (لابان). ولكن، في منفى يعقوب وفي خدمته، باركه الله؛ معطيًا له عائلة كبيرة وممتلكات عظيمة. وفي مرحلة محددة، تكلم الرب مع يعقوب، وقال له ما معناه: «قد جاء الوقت لك أن تذهب راجعًا للأرض التي وعدت أن أعطيك إياها». (انظر تكوين ٢٥: ١٩-٣٤؛ ٢٧: ١-٣٠؛ ٣٠: ٢٥- ٣١: ٥٥).

صار يعقوب يعرج

جمع يعقوب زوجاته وأولاده وماشيته، وحول وجهه غربًا متوجهًا ليعود إلى بيته. وعندما وصل إلى حدود الأرض التي وعده بها الله، نال اختبارًا فريدًا. تخبرنا كلمة الله أنه في إحدى الليالي -بينما كان يعقوب وحده- صارعه ملاك طوال الليل! ومع ذلك، ظل يعقوب قويًا في مقاومته؛ حتى إن الملاك لم يستطع أن يقوى عليه. في النهاية، مد الملاك أصبعه ولمس فخذ يعقوب، فانخلع مفصله؛ وصار يعقوب عاجزًا؛ وتأثير ذلك على يعقوب أنه تشبث بالملاك، وتوسل إليه من أجل البركة؛ وقد أخذها. ومن هذه المرحلة فصاعدًا، سار يعقوب يعرج. (انظر تكوين ٣٢).

ماذا يمثل لنا العرج؟ إنه يدل على نهاية قوتنا الذاتية واتكالنا على ذواتنا، وإدراك أنه لا يمكننا التقدم من دون الاعتماد على الرب.

يعقوب يسجد

بعد هذه المقابلة مع الملاك، كان لا يزال على يعقوب أن يتقابل مع أخيه عيسو، الذي كان في الجهة الأخرى، وقد سمع أنه قادم لملاقاته ومعه أربعمئة رجل متسلح؛ فكان مرتعبًا. ظن يعقوب أنها ستكون نهايته هو وأسرته، وكل ما يمتلك (انظر تكوين ٣٢: ١-٢١)، ولكن لاحظ معي ما حدث بالفعل:

«وَرَفَعَ يَعْقُوبُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا عِيسُو مُقْبِلٌ وَمَعَهُ أَرْبَعُ مِئَةِ رَجُلٍ، فَقَسَمَ ٱلْأَوْلَادَ عَلَى لَيْئَةَ وَعَلَى رَاحِيلَ وَعَلَى ٱلْجَارِيَتَيْنِ. وَوَضَعَ ٱلْجَارِيَتَيْنِ وَأَوْلَادَهُمَا أَوَّلًا، وَلَيْئَةَ وَأَوْلَادَهَا وَرَاءَهُمْ، وَرَاحِيلَ وَيُوسُفَ أَخِيرًا. وَأَمَّا هُوَ فَٱجْتَازَ قُدَّامَهُمْ وَسَجَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ سَبْعَ مَرَّاتٍ حَتَّى ٱقْتَرَبَ إِلَى أَخِيهِ. فَرَكَضَ عِيسُو لِلِقَائِهِ وَعَانَقَهُ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ، وَبَكَيَا». (تكوين ٣٣: ١-٤).

تعلَّم يعقوب الدرس

هل ترى هذه الصورة الجميلة؟ ها هنا يعقوب، الرجل الذي له البكورية والبركة والميراث، الشخص الذي تصارع مع الملاك وتقابل مع الرب الذي اختاره. وهناك، عيسو القادم للقائه، هذا الرجل الجسدي، الشخص الذي احتقر البركة، والذي لم يقبله الله بسبب اتجاهاته الخاطئة تجاه الأمور الروحية. ولكن، عندما التقيا، سجد يعقوب (الرجل الروحي) سبع مرات أمام أخيه الذي أساء إليه.

إلى ماذا يشير الرقم سبعة؟ إنه يشير للروح القدس. إنه يتحدث عن التواضع الذي عمله الروح القدس؛ فقد تعلم يعقوب الدرس: إن الكبرياء لن تأخذه لشيء. لقد تواضع أمام الملاك، لكن هذا لم يكن كافيًا! فالآن يتواضع أمام عيسو، وتواضعه هو الذي صنع المصالحة مع أخيه، وفتح الطريق أمامه ليدخل آمنًا إلى ميراثه الذي وعده الرب به. نرى أنه مع وجود وعد الله بالميراث، إلَّا أنَّ يعقوب لم يمتلكه قبل أن يُخضع نفسه، ليس أمام الله فقط ولكن أمام أخيه أيضًا.

خطوة يجب أن تخطوها

دعني أنهي هذا الفصل -وهذا الكتاب- بسؤالٍ وتحدٍ لك: هل هناك خطوة يريدك الرب أن تأخذها، كاستجابة لما كنت تقرأه؟ ربما -مثل إبراهيم- يريد الرب أن يوجهك لتستجيب باتضاع؛ حتى تمتلك الجزء الأكبر من ميراثه لك. أو مثل يعقوب، وهناك أمر يستلزم المصالحة مع شخص ما، ويستوجب خطوة اتضاع من جانبك.

مهما كان، فأنا أشجعك أن تسأل الرب: ما هي الاستجابة التي ينتظر منك أن تفعلها. ثم -ومهما كلفك الأمر- خذ الخطوة التي يوجهك السيد لأخذها.

علَّمنا يسوع الاتضاع كمبدأ للحياة، وأعطى نفسه مثالًا. يجب علينا أن نتبع مثاله، ونُخضِع ذواتنا. وبينما نفعل ذلك، سنستطيع أن نتعلم الطاعة، سامحين للرب بالعمل من خلالنا. وفي النهاية، كنتيجة لعمله فينا؛ سيكون لنا نظرته نحو العالم، فنحيا فيه بطريقة مختلفة، تمامًا مثل يسوع، ووفق ملكوت الله.

تذكر: كلما كان الليل أكثر قتامة، كانت النجوم أكثر بريقًا. دع نور الله يشع من خلالك؛ المفتاح هو التواضع. «فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ».

نبذة عن حياة الكاتب

وُلد ديريك برنس في الهند لأبوين بريطانيَّين. درس اليونانية واللاتينية في إثنين من أشهر المعاهد التعليمية، جامعة إيتون وجامعة كمبريدج من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٩. حصل على الزمالة من جامعة King كمبريدج وتخصص في الفلسفة القديمة والحديثة. درس العبرية والآرامية أيضاً في كل من جامعة كمبريدج والجامعة العبرية في القدس. وبالإضافة إلى ذلك يتحدث ديريك عدداً من اللغات المعاصرة.

في أوائل سنين الحرب العالمية الثانية، بينما كان يخدم مع الجيش البريطاني كمشرف مستشفى، إختبر ديريك برنس لقاء مغير للحياة مع يسوع المسيح.

عن هذا اللقاء كتب ديريك برنس:

من هذا اللقاء خرجت بنتيجتين لم أقابل ما يجعلني أتغير من جهتهما:

الأولى هى أن يسوع المسيح حيّ.

والثانية هى أن الكتاب المقدس صادق، عملي وعصري.

هاتان النتيجتان غيرتا مسار حياتي جذرياً وبلا رجعة.

في نهاية الحرب العالمية الثانية، ظل ديريك برنس (حيث أرسله الجيش البريطاني) في القدس. وتزوج من زوجته الأولى ليديا، أصبح أباً بالتبني لثماني فتيات. شهدت العائلة معاً إعادة قيام دولة إسرائيل في ١٩٤٨. وبينما كان ديريك وليديا في كينيا يعملان كمعلمين، تبنيا إبنتهما التاسعة طفلة أفريقية. توفيت ليديا في عام ١٩٧٥. وفي عام ١٩٧٨ تزوج ديريك من روث بيكر لمدة ٢٠ سنة . سافرا معاً الى كل أنحاء العالم يعلمان الحق الكتابي المعلن ويشاركان الرؤية النبوية في أحداث العالم في ضوء الكتاب المقدس. توفيت روث في ديسمبر ١٩٩٨.

إتجاه ديريك المتجرد من الطائفية والتحيز فتح أبواباً لسماع تعاليمه عند أناس من خلفيات عرقية ودينية مختلفة، وهو معروف دولياً كأحد قادة تفسير الكتاب المعاصرين. يصل برنامجه الإذاعي اليومي، «مفاتيح الحياة الناجحة» إلى نصف العالم في ١٣ لغة تتضمن الصينية والروسية والعربية والأسبانية.

بعض الكتب الخمسين التي كتبها ديريك برنس قد تُرجمت إلى ٦٠ لغة مختلفة. منذ ١٩٨٩ يوجد تركيز على شرق أوربا ودول الإتحاد المستقلة (الكومنولث والمعروفة بالإتحاد السوفيتي

سابقاً) ويوجد أكثر من مليون نسخة متداولة بلغات هذه الدول. مدرسة الكتاب المقدس المسجلة على الفيديو لديريك برنس تشكل أساساً لعشرات من مدارس الكتاب الجديدة في هذا الجزء من العالم الذي لم يكن مخدوماً من قبل.

من خلال البرنامج الكرازي العالمي، وزعت خدمة ديريك برنس مئات الألوف من الكتب وأشرطة الكاسيت للرعاة والقادة في أكثر من ١٢٠ دولة للذين لم يكن لديهم وسيلة للحصول على مادة تعليمية للكتاب أو لم يكن لديهم المقدرة المادية لشرائها.

يوجد المركز الرئيسي الدولي لخدمة ديريك برنس في شارلوت بولاية شمال كارولينا، ويوجد فروع للخدمة في المملكة المتحدة و أستراليا وكندا وفرنسا وألمانيا وهولندا ونيوزيلاندا وسنغافورة وجنوب إفريقيا ويوجد موزعون في دول كثيرة أخرى.

ملاحظات

ملاحظات

ملاحظات

ملاحظات

ملاحظات

إصدارات أخرى لديريك برنس بالعربية

كتب:

- أسس الإيمان
- يخرجون الشياطين
- الكفارة
- الإيمان الذي به نحيا
- الحرب في السماويات
- تلبسون قوة
- أزواج وآباء
- الدخول إلى محضر الله
- تشكيل التاريخ
- عهد الزواج
- مواجهة الأيام الأخيرة
- الشكر التسبيح العبادة
- العبور من اللعنة إلى البركة
- أسرار المحارب في الصلاة
- دراسات شخصية في الكتاب المقدس
- القوة الروحية المغيرة للحياة
- ما جمعه الله
- البركة أو اللعنة: أنت تختار
- لنحيا ملح ونور
- قوة اسمه
- مواهب الروح القدس
- إستقبل وعود الله
- لماذا تحدث أمور صعبة لشعب الله
- قدس للرب
- اكتشف قيمتك في قلب الله
- الكبرياء مقابل الاتضاع
- الأمان المطلق

كتيبات:

- المبادلة الإلهية العظمى
- الأبوة
- الدواء الإلهي
- شركاء مدى الحياة
- المصارعة الروحية
- الروح القدس فينا
- الرفض
- ومتى صمتم
- فكر الله نحو المال
- هل يحتاج لسانك إلى شفاء
- الخلاص الكامل
- المحبة المسرفة
- الصلاة من أجل الحكومة
- مشيئة الله لحياتك
- أقوى ثلاث كلمات
- من المرارة إلى الفرح
- ثق في نعمة الله
- رجاء يفوق الألم
- قوة العشاء الرباني (الأفخارستيا)

يمكنك استماع وقراءة هذا الكتاب

وكل كتب ديريك برنس الأخرى على موقع الخدمة

www.dpmarabic.com

GET IT ON Google Play

Available on the App Store

إذا لمسك الرب من خلال هذا الكتاب شاركنا باختبارك على:

info@dpm.name

+447477151750

Derek Prince MINISTRIES